واو الصفر

«في روايات الكوني يصير القيظ والريح والجوع والعطش من الثوابت. سلطة الطبيعة تنهض أمامنا، إلى جانب حيوانات كالودّان والمعز والإبل، كمجاز لإمكانات استمرار الوجود في مواجهة طبيعة متقلبة المزاج على نحوٍ أبديّ».

الناقد الأمريكي روجر آلان
من دراسته الجديدة: «ثلاث أصوات في أدب شمال إفريقيا»

«نثر الكوني يأسر بثرائه الشعريّ عن غربة الطبيعة الصحراوية الغنيّة بالأساطير، ومعتقدات أهل المكان. هذه الرواية تنبّه إلى مسألة كمْ هو خطر العيش في عالم كعالمنا».
صحيفة «أوبرغيسّن» حول رواية «نزيف الحجر»

«ينطلق الكوني في أعماله الروائية ليلمّ شمل شتات واسع تجتمع فيه تقاليد الأسلاف، والأساطير المحليّة، والتصورات الدينية (من قرآنية وإنجيلية) وصولا إلى إرث رموز الآداب الأوربية القديمة، إلى جانب إنجازات الأدب العربي، حيث يقوم بتوظيف عناصر واقعية بمناخ رمزية، مازجاً العناصر السوريالية بالتصورات الخرافية والحكائية والأسطورية».

الناقدة السويسرية فريدولين فورغر
«صوت هام وفريد في الأدب العربي» صحيفة «نيولوتزرنر زايتونغ»

«في فضاء واسع كالصحراء، وفي أمكنتها البؤرية (الصخرة، الهاوية) أمكنة متفرقة عدّة، لاينمو إلاّ الإحساس بالعزلة والفردية... ففي الرواية الكثير من الدلائل التي تشير إلى أن الشخصيات تحاول، من خلال وجودها الفردي وعزلتها في الصحراء، أن ترتبط بالأرض ارتباطا رحميّاً أشبه ما يكون الارتباط بالعودة إلى كهفية زمنية-مكانية، أي أن الشخصيات انفصلت عن الأم الأولى، ثم حاولت ، من خلال السرد، العودة إلى ذلك الرحم، أعني الطبيعة، وهذه العودة بالضرورة عودة سيكولوجية».

الناقد العراقي ياسين نصّير
عن دراسته حول «نزيف الحجر: دراما الصحراء الذاتيّة»

« مفهوم الإلكستروفوبيا في الأدب العالمي مرتبط بشكل أساسي بالمكان الحضري المكتظ بالمباني والسكان والأسواق. إن اختناق «تازيد يرت» في الصحراء الواسعة يشبه إلى حدّ كبير حالة الاختناق نفسها التي تصيب أبطال رواية «يولسيس» جيمس جويس، و «الغريب» لألبير كامو، و «القيظ» ليوسف الشاروني، مع فارق أن الفراغ في قصة الكوني صحراوي واسع، أما في قصص الشاروني وجويس وكامو فهو فراغ حضري».

الأكاديمي المصري د. أشرف عيسى
عن دراسته : «كرونوتوب الصحراء في قصة « نذر البتول»

إبراهيم الكوني

واو الصفري

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس..
بدر

رواية

إبراهيم الكوني

واو الصفرى ١

رواية في سِيَر

واو الصغرى / رواية عربية
إبراهيم الكوني / مؤلف من ليبيا
الطبعة العربية الأولى ، ١٩٩٧
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، سالفة الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ١/٨٠٧٩٠٠
تلكس LE/ DIRKAY ٤٠٠٦٧
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس ٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفني :
سمير سيف ®
لوحة الغلاف :
لفنانٍ ما قبل التاريخ ؛ من رسوم منطقة تاسيلي ، الألف السابعة ق.م (الصحراء الليبية).
الصف الصوتي :
ساجدة العجوة، عمّان هـ ٧٨٤٢٣٨

All rights reserved. No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر

١

أهل السماء

« كيف؟ ألا تقول أن السّماء والطير برهان على وجود اللّه؟ »

بليز باسكال

« الأفكار »

(١)

أقتنص في الصوت تعدّد الأصوات منذ الأيام الأولى .

بل يستطيع أن يؤكد لنفسه الآن (بعد مرور المواسم، وتدفّق السيول في الوديان) أن هذا الحشد السحيّ من الأصوات الذي يجود به الطائر الخفيّ هو السرّ الذي شدّه إليه طوال هذه الأعوام. صوت عليل، واهن، يماثل صفير الريح في عيدان القصب، يستحيل نقله إلى لغة الحروف، ولا يمكن تقليده باللسان، يبدأ أنيناً خافتاً، فيستيقظ الشجن في الحال، يعلو في نغم عنيد، فيتشبّه بوتر الحزن في إمزاد، الوتر الوحيد الذي يلتئم بوتر سفلي وحيداً أيضاً، فيلتحما، ليبدعا، معاً، شجناً، حزناً، غناءً، ملحمةً تروي سيرة الصحراء كلّها. الصوت الخفيّ أيضاً يبدع سرّاً مماثلاً. الصوت الخفيّ الذي لا ينتقل إلى لغة الحرف، ولا يعترف برسم الرمز، ويرفض أن يُقلّد باللسان، يبدأ أنيناً وديعاً، واهناً، غائماً، غامضاً، يستفزّ الحنين، ويوقظ، كلّما ارتفع، وتعالى، شرراً خفياً، شرراً كان دائماً ناموس العابر، كان دائماً ديانة أهل الخلاء الذين لا يكفّون منذ أن وجدوا، منذ أن وُلدوا، عن طلب ما أخفاه الخلاء. يزدوج الصوت فجأة، ينضم طائرٌ خفيّ، آخر، إلى الطائر، فيولول الصوت الجديد بموّال جديد. تتلاءم النغمتان وتتلاحم في لحن واحد. لحن جديد، فتنعطف

الأغنية، وتحلّق في مدى آخر، يتبدّل العراء، وتمدّد المسافة. يشتدّ إغواء الخلاء، وتعد الصحراء بميعاد جديد. بميعاد خالد، وُلد يوم وُلد العابر، وُجد يوم وُجد العابر، ولكن العابر يمضي، العابر يعبر، ويبقى الوعْد، يبقى الإغواء الخالد، إيماء الميعاد المستحيل، الذي وُجد كفخّ عظيم، يسوق العابرين إلى الصحراء، إلى الحياة، ملوّحاً بالوعد، واعداً بالواحة، بالميعاد الذي لا يُدرك. في البُعْد الجديد يغلب الفرح، ويفيض القلب وجْداً، يرتجف البدن برعشٍ كالرقص لأن وهجاً تبدّى في الأفق، لأن قبساً شقّ ظلمات الأفق الأبدي الشاحب، فلاحَ، لغمضة قصيرة كومض البروق، إيماء تاق العابر لنيله طويلاً، وجاهد لمشاهدته أزلاً كالأبد، فوسم الفراغ الصارم، المعادي، الأبدي، بإشارة كشرر الوحي، فرأى ما لم يستطع أن يراه في المدى، ووجد ما لم يستطع أن يجده، وجد ما لم يطمع في أن يجده .

.. فكيف لا يتزعزع الجسد الهزيل برعش الوجْد؟
وكيف لا يفرّ من المقلة دمع الحنين ؟

(٢)

تستقبل الصحراء الطير مرتين كل عام: في الربيع تأتي الأسراب من الجنوب، تمكث في النجوع أياماً، ثم تتنادى لتواصل السفر إلى أوطان الشمال. أمّا في الخريف فتقبل من

الشمال، تمكث في النجوع أياماً أيضاً، ثم تتنادى وتسافر إلى بلاد الجنوب. ويُقال أن الأسراب في الماضي، كانت تختار الواحات مقرّاً للعبور، ولكن كثافة الأفواج أفزعت الأهالي، ورأوا في الغزو خطراً على الزروع، فحاربوها، ونصبوا لها الأفخاخ، وأصابوها بسهام النشّاب، وقرعوا الطبول ليفزعوها، ففرّ الطير من الواحات، وتجنّبت الأسراب المهاجرة المرور فوق الحقول، وأختارت، في الأزمنة التالية، نجوع الصحراء وطناً للعبور. فكان أهل الصحراء يتفاءلون بقدومها كثيراً، ويرى العقلاء في نزول الأسراب علامة سماوية، في حين يخرج العرّافون لملاقاتها مسافات بعيدة جدّاً عند قدومها، ولا يفوتهم أن يخرجوا وراءها مسافات أبعد أيضاً عند هجرتها. ويُقال أن العرّافين يطاردون أسراب الطير ليقرأوا أنباء مجهولة يخفيها الخفاء في مسلكه وأصواته وطرق طيرانه .

لا يبتهج العرافون وحدهم لقدوم الطير، ولكن أهل الصحراء كلهم يخرجون إلى العراء عندما يلوح في الأفق أول سرب. يهرع العقلاء أولاً لإستقبال المَلّة المهاجرة. يخرجون إلى الخلاء في جماعات متفرقة، تمشي بكبرياء الأكابر، يتقدّمهم الزعيم وحيداً ملفوفاً في لباس المناسبات. خلف الأكابر يسير الفرسان في فرق أيضاً، خلف الرجال تخرج جموع النساء، يجرجرن الأولاد، ويلوّحن بالصغار الرضّع في الهواء، يرددن

مواويل البشارات، ويزغردن في آذان أطفالهن بسبّير تقول: هاهو الطير الذي وهبك لي في العام الذي مضى قد أقبل من جديد. هاهو، أبيل بيل،(*) الذي حملك إليّ قد أتى ليراك. الطير هو أمّك. الطير هو أبوك. الطير هو أخوك. الطير هو أهلك. الطير جاء يزور وديعته. الطير جاء ليستعيد وديعته. فمتى تكبر لترافق الطير؟ متى ترتّي جناحاً ليقبلك السرب في القبيلة وتهاجر مع الطير إلى بلاد الطير؟ . تفيض من عيونهن دموع الحنين، دموع أمّهات صحراويات، دموع أمّهات يعلمن، بحدس الأمّهات، أن الوليد إذا وُلد في وطن إسمه الصحراء فسوف لن تنعم أمّ بأمومته طويلاً، لأن الوليد الذي جاء به إلى الصحراء طير، فلا بدّ أن يحاكي ملّة الطير، ويهجر العشّ مبكّراً. واذا جاء ميعاد العبور فإن السفر لا ينتهي أبداً. الأمّ تعلم أن شرع الصحراء هو الذي سَنّ الناموس الذي يحيل الوليد بين يديها طيراً، إذا خرج يوماً، إذا خرج أول يوم، فلن تستطيع أن تستعيده، ستمتلكه الصحراء منذ ذلك الحين، ولن يلتفت المسكين إلى الوراء، لن يلتفت إلى الحياء، إلى العشّ، وسوف تفقده الأم إلى الأبد، ولذلك تشيّع الأمّ الرضيع إلى أعلى، وترمي به في الهواء يوم حلول الطيّر، وتبكي، وتغنّي أغانٍ شجيّة في

(*) أبيل - بيل: طائر الغرنيق .

مديح التّيه، لأن الأمّ تعلم، بحدس الأمّ، أن خروج إبن الصحراء ليس خروجاً إلى الحياة ، كما تأمل كل الأمّهات، ولكنه تيه، خروج إلى التّيه. خروج إلى تيه لم يعد منه أحد يوماً .

يبدأ إحتفاء القبيلة بحلول الطير في نفس الليلة .

تخرج أسراب الصبايا إلى العراء قبيل الغروب. يتحلقن حول طبل الفرح، يطلقن الزغاريد، تغنّي الشاعرات أشعاراً تميت السكون في الخلاء، وتوقظ مارد الوجْد في قلوب أهل الخفاء، فتتوارى الجنيّات في أبعد الغيران خجلاً، ويجدب رجالهنّ طرباً وابتهاجاً وشجناً، يقبلون على الجمع متنكرين في ثياب الإنس، ويقتحمون الحلقة ليناقسوا فرسان القبيلة في الرقص. يطلع القمر، يشعل في الصدور حماساً جديداً، يشتدّ الإيقاع، تزداد حرارة الأشعار، تصيب حناجر الشاعرات بحّة، فتضيف البحّة في أصواتهن جاذبية ولذّة. يترنّح النجع كلّه، وتُصاب القبيلة بالمسّ الخفيّ الذي حيّر العرّافين، و لم يجد له حتى أهل الناموس تفسيراً.

يسكت الغناء عند مطلع الفجر، ولكنّ المسّ الخفيّ يستمر أياماً، يستمر طويلاً، يستمرّ زمناً لا يُنسى .

(٣)

عندما يقبل الطير على الصحراء، وينزل ضيفاً على النجوع، لا يحطّ على سطوح الأحبية في الحال، ولا يقع في

قيعان الوديان ليضرب الحضيض بالمنقار بحثاً عن ديدان المراعي، ولا ينزل الخلوات الواقعة بين النجوع لينكش ركام الفضلات، ويفتّش في المخلّفات عن حَبّ أو فتات أو طعام لقيط كما تفعل طيور النجوع التي لم تتطلع إلى أوطان المجهول، ولم تجرّب فردوس الهجرة. ولكن الطير المهاجر يقبل على المتجمعات في قبائل كثيرة، كثيفة، متجاورة، تنقاد كل قبيلة وراء زعيم حكيم يرفرف في المقدّمة مردّداً نشيداً لذيذاً، مميزاً، تردّده وراءه كل القبيلة ككلمة السرّ.

في الجوار ترفرف أجنحة قبيلة أخرى، تختلف في اللون، ولكنها تسعى إلى نفس المكان، تطير إلى نفس الوطن المجهول، يسبقها زعيم في الفراغ، وتردّد لحناً مختلفاً يميّزها عن القبيلة التالية، كل لحن أغنية بهيّة عندما تُسمع بمعزل عن بقية الأغاني. ولكن زعماء القبائل لابد أن يلقنوا السرب كلمة السرّ، والسرب لابد أن يردّد كلمة السرّ ليعطي الدليل على انه سرب لم يخرج عن سبيل القبيلة، ليعطي الدليل على أنه مازال ينتمي إلى ناموس القبيلة، لأن من لا ينتمي إلى قبيلةٍ أصبح معزولاً، صار معتزلاً، والمعتزل، في شرع الخلاء، في شرع الطير، كائن بائس ووحيد وضائع. الخوف من الضياع، الخوف من التيّه، هو الذي يدفع كل طير في القبيلة أن يتشبّث بالعلامة، بكلمة السرّ، باللحن، فيردّد الأغنية وراء الزعيم كما يردّد إبن اصحراء إسمه يوم يخرج

إلى المرعى أول مرّة، لأن أمّه علّمته أنه سيضيع إلى الأبد إذا نسي إسمه .

لهذا السبب تتردّد اللّحون، وتتداخل الأصوات، وتتعدّد الأغاني، فتضيع حلاوة الغناء، وتتبدّد متعة الألحان، لأن الصبايا عندما يجتمعن في حلقة واحدة، وتغنّي كل صبيّة أغنيتها، فإن الطرب يفسد، وبهجة اللحون تصير هرجاً منفراً.

تحلّق الجموع في سماء النجوع طويلاً قبل أن تقرّر النزول والإنتشار في الوديان والمراعي. وقد لاحظ أهل الصحراء كيف يشتد حماسها وترتفع أناشيدها، ويزداد رقصها في الفراغ خفّة وجمالاً، في الساعات التي تسبق نزولها على الأرض. يتحوّل غناء بعض القبائل زعيقاً عنيفاً، وينقلب رقص مِلل أخرى جنوناً وحُمّى. هل لأن التنازل عن مملكة السماء، واستبدالها بأحاضيض الأرض قاسٍ إلى هذا الحدّ؟ أم أنّ السرّ الحقيقي في السفر الذي يقول العابرون أنه يهب من احترفه زماناً طويلاً لذّة تفوق في حلاوتها وإغوائها وجْد الطرب، فيتمنّون، عندما يبدأ، ألاّ ينتهي أبداً؟

يحطّ على الخباء، أو على شجر الوادي، أوّل طائر.

يهلل الصبيان إبتهاجاً، تتبارى ألسنة الصبايا في ترويض الزغاريد، وتعلو حناجر الشاعرات بالغناء الحزين .

يقبل العرّافون باحتراس الثعالب. يطوفون حول الطائر ،

يهمهمون بالتمائم، يقولون ما لم يقولوه إلاّ لأنفسهم: ،لست طيراً أيها الطير. أنتم نحن يا معشر الطير. ناموسكم أسفار، وناموسنا أسفار. ترفرفون بجناح في السماء، فنزحف بقدمين على الأرض. تهاجرون إلى أوطان الشمّال المجهول، ونهاجر بحثاً عن ، واو، تعودون من أوطان المجهول في زمن آخر لأنكم لا تجدون الوطن المجهول في أوطان الشمال المجهول، ونعود من رحلتنا في طلب ،واو، في زمن آخر، لأننا نكتشف أن لا وجود لـ ،واو، في وطن الصحراء. ولكنكم لا تكفّون عن الهجرة، ونحن لا نكف عن البحث. لأنكم تعلمون أن البطولة ليست في الوصل، ونحن نعلم أن البطولة في الطلب . فهل تعلمون، يا ملّة الطير، لماذا تختفي وصولكم؟ لأننا جميعاً نعلم أنكم نحن، ونحن أنتم، برغم أننا لا نقول ذلك لأحد ..

(٤)

ولكن هل يدوم من أعتاد إرتياد الفضاء حتى صارت له السماء وطناً، حياة الحضيض؟ هل تستطيب هوان الأرض مخلوقات وُلدت وعاشت معلّقة بين السماء والأرض ؟

مقام الطير في النجوع لا يدوم طويلاً .

أيام قليلة ثم ينطلق النّداء .

يستعير زعيم كل قبيلة دور النذير ، فيطوف الوديان ،

ويحلّق فوق البيوت، صائحاً بكلمة السرّ، مردّداً بصوت زاعق أغنية الرحيل. يختطف أفراد القبيلة كلمة السرّ، وتبتهج الأصوات بالأغنية، فيحلّ المبعاد، ويبدأ الاستنفار، فتكثر اللحون، وتتعدّد الأغاني، وتتداخل الأصوات، فتضيع حلاوة النشيد، وتتبدّد المتعة، لأن حمّى السّفر تحبّ الطرب، وساعة الإنطلاق تبتلع لذّة الغناء، فيرفرف أول جناح، يهجر أرض الصحراء، يرتفع في فضاء الصبح، فتتحمّم أجنحته الموسومة بألوان شهيّة بضياء الشمس، فتتدافع وراءه أجنحة كثيفة لها نفس اللون، يغرق السرب في الضوء، ولكنه لا ينطلق في إتجاه الوطن المجهول قبل أن يطوف الوديان ويحلّق فوق البيوت مودّعاً. في هذا الطواف الحزين، في هذا الوداع الموجع، تتبعه جموع القافلة، فيشهق الحكماء وتختنق الصبايا بالدّمع، ويبكي الصغار بصوت عالٍ، في حين يركض العرافون وراء السرب ليقرأوا في رسمه النبوءة .

تتتابع الأسراب المهاجرة في الفضاء، تتلاحق في الفراغ الصارم، القاسي، اللامبالي، الأبدي. تتراجع أغانيها، يخفت هرج الخونها، ولكن العرّافين لا يكفّون عن ملاحقتها حتى عندما تختفي في الفراغ الموجع، لتصير جزءً من الفراغ، جزءً من صفاء الفراغ، جزءً يتلاشى ويتبدّد في اللاشيء.

هاجر الطير، وخلّف للنجوع سكونها القديم، سكونها المميت .

ولكنّ العرافين يعودون في اليوم التالي، يعودون إلى النجع بالنبوءة. يدخلون خباء الزعيم، يختلون بالزعيم ليلة كاملة، وعندما يخرجون ليواجهوا القوم، يأمرون بقرع طبول الغزو، أو يستدعون النذير ليطوف النجوع منبئاً القبائل بالهجرة، لأن الجدب آتٍ، أو يرسلون في طلب الصبايا ليزغردن فرحاً بنبأ السيل الذي رأوه في مسلك الطير.

وفي ذلك اليوم اختلى العرّافون بالزعيم الليل كلّه أيضاً، ولكنهم عندما خرجوا إلى الناس في الصباح، لم يأمروا بقرع طبول غزوة، ولم يقوموا باستدعاء النذير لينبيء القبائل بالجدب، ولم يرسلوا في طلب الحسان ليزغردْن ابتهاجاً بسيل رأوه في مسلك الطير .

في ذلك اليوم خرج الحكماء من خباء الزعيم صامتين. في عيونهم قرأ الناس إنكساراً وكآبة، في وجوههم رأى الناس وجوماً وخيبة .

٢

النبوءة

« بعد الثالثة والستّين لا ينبغي على الإنسان أن يخشى الأرض، لأن الأرض تذكّر بنفسها، وتعلن إنها هنا، تنتظر؛ بهدوء، بتمهّل، مع كل خطوة تجذبه إليها قائلة: لا تخف، إهجع، أنا لن أسيء إليك، حرّك، فقط، وإهجع ».

وليام فوكنر

« بيت معزول»

(١)

لماذا تنتقل القبائل؟ لماذا تعبر المكـان إلى مكـان أبعـد؟ هـل تفعل ذلك تركاً لأرض مهدّدة بالجفاف والمجاعات لتـدرك أرضـاً تعد بالكلأ السخيّ؟ هل تنطلق خوفاً من النبوءة القديمة التي تقول أن المكوث في أرض أربعين يوماً عبودية للأرض؟ أم إنها تتحـوّل لأن الناموس قال أن الموت على ظهور البعـائر قـدر المِلَـل النبيلـة وحدها؟ أم أن الحكمـاء يوهمـون الدهمـاء بـالتنقّل طلبـاً للميـاه والعشب في حين يرحلون إستجابة لنداء آخر مجهول لا يكشفونه حتى لأنفسهم؟

القبائل تعرف أن عمائم أهل العقـل تخفـي أسـراراً كثـيرة، القبـائل تعـرف أن الزعيـم لا يصـير زعيمـاً، والعـرّاف لا يصـير عرّافاً، وصاحب العقـل لا يصـير عضـواً في جمع الأكـابر، إذا لم يسكت الزعيم، أو العرّاف، أو صاحب العقل، علـى سـرّ، إذا لم يخفِ على الخلق سرّاً، لأن من غلبه سلطان اللسان، وفشل في أن يكتم سرّاً، لا يؤتى حكمةً، ولا يصير على الخلـق سلطاناً. هـذا السبب تستجيب القبائل لنبوءة العرّاف، وتمتثل لنصـح صـاحب العقل، وتطيع أمر الزعيم، فتنطلق جموعاً، وراء القافلة ما أن يأذن الزعيم بالإنطلاق، وتحطّ الرحال ما أن يأمر الزعيم بحطّ الرحال.

ولكن القبائل تعرف أيضاً أيّ ويلٍ ينتظر القبائل، إذا عبس

الزمان ودخل مجلس الحكمة خلاف، أو وجد البلبال طريقاً إلى خباء الزعيم .

(٢)

....

تتوارى قبائل السماء في متاهة السماء، وتترك وراءها سكوناً، وكآبة، وطيوراً بائسة، حزينة، لأن علّة، أو جُرْحاً، أو عجز الشيخوخة، أقعدها عن مواصلة الرحلة واللحاق بالقبيلة .

في الرحلة الأخيرة هاجرت القبيلة، وخلّفت وراءها غرنيقاً عجوزاً. لم ينتبه لوجوده أحد في اليوم الأول، ربّما لأن القبيلة، في ذلك اليوم، انشغلت بالهمّ الذي خلّفه غياب الطير. ربّما لأن الحزن الذي تركه أهل السماء للقبيلة كان أكبر من الخلاء فابتلع الخلاء، وأخفى الكائنات التي تدبّ في الخلاء. الحزن، في شرع العرافين، يحجب الرؤية ويعمي البصر حقّاً. ويُقال أن الحزن الذي يتركه المهاجر في قلوب أولئك الذين يتركهم وراءه يفوق الحزن الذي يخلّفه الأموات في قلوب ذويهم. ويسوق أصحاب العقل لذلك مبررات كثيرة، فيقولون: ، السفر فراق أبدي، والموت فراق أبدي، ولكننا نستطيع أن نقيم أضرحة مهيبة لأمواتنا ، أضرحة حجريّة، نزورها في الأعياد، ونتوسدها في الليالي لنستعير منها نبوآت تحذّرنا من العدوّ، أو من الوباء، أو

من الجدب، واذا تمادى الجنّ في إزعاجنا، ذهبنا إلى الأضرحة، ونبشنا الحجارة، لنستخرج عظام موتانا لصنع منها تمائم ترافقنا في أسفارنا، ونستعين بها لإرهاب أهل الخفاء. أما أهلنا الذين تركونا في سفر بعيد، فإنهم يتوهون، فلا نهتدي إلى مدافنهم، ولا نعثر لهم على أثر.

ولكن يوجد سبب آخر للحزن الموجع الذي اعتادت قبائل الصحراء أن تشيّع به أهل السبيل. سبب غامض تحسّه القبائل، ولكنها تجهله، ويعرفه العقلاء، ولكنهم يصرّون أن يخفوه عن أنفسهم. إيماء مشوّش، غائم، يوسوس في الصدور، ويتمتم بهمس كوشوشة الريح قائلاً أن المسافر وحده موعود بدخول «واو»، المسافر وحده يستطيع أن يطمع بالعثور على القارة الضائعة، المسافر وحده يهدد في قلبه أمل الفوز بالواحة المفقودة، برغم أن المسافر لئيم بالسليقة، فيخفي الأمل بعيداً، ويحاول أن يقنع نفسه باللاّ أمل، لأنه يعرف أنه لو لم يخفِ الأمل عن نفسه، فسوف تغلبه نفسه ويخبر به أحداً، واذا تكلّم لسان بالسرّ بطُل السرّ وتحوّل الكنز، تحوّل التبر، رماداً. ولكن ركب المودعين ملّة لئيمة أيضاً، لأنهم يحدسون الخبر، ويقرأون النيّة في مقلة العين قبل أن يعرفوها في زلّة اللسان، فيحرقهم الوسواس، وتشتعل صدورهم بنار الحنين، ويعذّبهم الحسد، فيبكون ... يبكون لا حزناً للفراق، ولكنهم يبكون لأن مخلوقاً ضائعاً مثلهم، شقيّاً

مثلهم، لم يعرف يوماً من أين أتى، ولا إلى أين يذهب، مثلهم أيضاً، سيجد السبيل الذي لم يجدوه، وسيسوق المجهول إليه الواحة التي وعد بها أهل الصحراء منذ جاءوا إلى الصحراء، وسوف لن يعرف بعدها "شقاء الطب المميت، وستختفي من قلبه أوجاع الحنين، لأن النسيان الذي تدين به بواو، هو ترياق يداوي علل الدنيا، فينقلب ميزان الأشياء، ويصير المسافر الذي يهدّده الخلاء بالتّيه، مولوداً، وتصير ملّة المودّعين التي يعدها الاستقرار بالأمان، ملّة شقيّة، بائسة، مفقودة. وعندما يكون لا يكون حزناً على المسافر حتى لو كان أقرب الأقارب، لأنه مخلوق مفقود، ولكنهم يبكون على أنفسهم لأنهم هم الخلق المفقود، فينقلب المهاجر عدّواً حتى لو كان أصدق صديق، حتى لو كان أخاً، حتى لو كان أباً .

يطير الطير، في موسم الطير، فيرتدّ كل إمرء إلى نفسه، ليغالب حنينه المجهول، حنينه إلى المجهول الذي أتى منه يوماً محمولاً على جناح الطير، لأن الطير الذي جاء به إلى الصحراء طفلاً ملفوفاً في قماط النسيان، لن يستطيع أن يعيده إلى المجهول، إلى الوطن، بعد أن خرج من قماط النسيان .

(٣)

في الصباح وجد الصغار الطائر الجليل قابعاً فوق شعفة

أحد الأحبية. وجده الصغار بعد ان خرج الكبار لقضاء حوائج الكبار، فأحاطوا بالبيت، وتجادلوا في إيجاد طريقة للوصول إليه . جاء أحدهم بعصا طويلة وضرب بها زاوية الخباء ليفزع الضيف، ولكن الطائر المكابر استمرّ يتكوّم حول نفسه، يلقي برقبته الطويلة إلى الوراء، ويحمي رأسه بجناحية، فيتمدّد منقاره الأحمر في الفراغ، ويفتح عينه باسترخاء ليكشف عن مقلة مهمومة. تناول صبي طويل القامة، نحيل العود، حجراً ورماه باتجاه الطائر. تدحرج الحجر على بيت الشّعَر، وعبر إلى الناحية الأخرى، فصيحّ الصغار، ولوّحوا بقبضاتهم في وجه الصبي النحيل :

– هذا إثم. هذا كمن يضرب أمّه أو أباه. هل ترمي أُمّك بالحجر؟ لو رآك الكبار فستنال عقاباً .

فرّ من الجمع فتى يشطر رأسه بالشعر فيبدو كتاج الهدهد. قال :

– لا تقتربوا. هذا ضيفي، ألا ترون أنه لم يختر إلا بيتنا من بين كل البيوت؟. كنت أعرف أنه سيأتي، لأني رأيته في المنام ثلاث مرّات. وحمل لي بشارة! يقول الكبار أن الطير يجلب البشائر .

سخر الصبي الطويل، صاحب العود النحيل :

– بشارة؟ ألا ترى أنه عجوز؟ عجوز الطير يحمل النّحس لا البشارة .

- وكيف عرفت أنه عجوز يا وجه النحس ؟

- أنظر إليه. ألا تستطيع أن ترى انه عجوز ؟

- ربما أصابه التعب. لا تنسَ أنّه أقبل من بلد بعيد .

- لو لم يكن عجّوزاً لما تخلّف عن السرب .

- ربما أصابه مرض ، أو ناله جرح . أنا لا أرى ما يدلّ على انه عجوز . هل ترون ، يا صغار ، ما يدلّ على أنه عجوز؟

جعجع الصغار بالهرج، ولكن صوت الصبي النحيل علا مرة أخرى :

- الطائر عجوز، والطائر العجوز يجلب النحس. اطرد عجوز النحس بعيداً إذا أردت ألا يصيب بيتكم سوء .

إستبّد بصاحب التاج غضب. صاح :

- أنت تتكلّم بسبب الحسد. انت ولد شرّير وكريه لأن لسانك يتكلّم بالحسد .

ولكن الولد النحيل، بدأ يحجل على رجل واحدة، ويطوف حول الخباء، مردّداً تلك الأغنية القاسية التي توارثتها الأجيال، وقيل أن الأسلاف كانوا يتغنّون بها فوق رؤوس شيوخهم عندما يهرمون، فيرمون بهم في الحفر، ويتركوهم لمصيرهم :

وجّيع تمضريت آجّيد آتدْ وَلَدْ

وجّيع تورنا آجّيد آتزّيدْ (*)

استجاب قسم من الصغار للنداء، فتغنّوا باللحن القاسي، وساروا وراء الصبي النحيل راقصين. وجمد القسم الآخر، وتنقلوا بأبصارهم بين أقرانهم الأشقياء، وبين قمة الخباء، حيث قبع الطائر، فتهيّأ لكثيرين أنه يتكمش ويتضاءل كلما استدّت هرجة الصغار، وعلت أصواتهم بالإيقاع الفاجع .

(٤)

انتصف النهار فتململ الطائر. تزحزح إلى أعلى شبراً، وفرد جناحه الأيمن، مصحوباً بالساق اليمنى، كمن يتمطّى، ثم فرد الجناح الأيسر، وتركه ممدوداً فوق الساق اليسرى برهة أخرى. انتصب. انتصب بقامة طويلة جداً. جسم هزيل محمول على ساقين أكثر هزالاً، منقار طويل ممدود إلى الأمام يفوق الساقين طولاً. سُمع في الجمْع صوت :

- هذا ليس ، ابيل، بيل.

انتهره صاحب البيت :

- كم بلغت من العمر حتى أوتيت علماً في أمم الطير ؟

(*) لست صغيراً حتى تنتظر أن تكبر

لست مريضاً حتى نتوقّع شفاءك

هتف صوت آخر :

- هو على حقّ. هذا طائر آخر، هذا طائر مجهول .

تدخّل الصبي النحيل، صاحب القامة الطويلة :

- سواء كان أبّيل - بيل أو طائر آخر، فإنّ اليقين أنه عجوز. والطائر العجوز يجلب للنجوع النّحس .

صفع الطائر الهواء بجناحيه. صفع الهواء باسترخاء، بيأس، ثم ترك الجناحين مشرّعين ومضة، وأطلق صوتاً غريباً، زعيقاً مكتوماً، قبل أن يرفرف ويحاول الطيران. ارتفع في الهواء أشباراً، ارتفع بتثاقل، وبطء، وخشونة لا تتناسب مع هزال جسمه. رفرف بتثاقل الدجاج، وبطء الدجاج، وخشونة الدجاج عندما يتحلّى بالبطولة، فيتمرّد على طبيعته، ويجرّب أن يتنصّل من أصله، ويطير ليصير أيضاً، من سكّان السماء .

إنطلق الطائر مسافة نحو وادي الرّتم. هوى. هوى إلى الحضيض كما يهوى الدجاج. هوى بخزي لا يليق بالطير. هوى، ولكنه لم يتوقف عن صفع الفراغ بجناحيه الكبيرين، الناصعين، الموسومين بالوهن والسواد، فلامس الأرض بساقيه، وحرث التراب بمخالبه مسافة طويلة .لاحقه الصغار، فجرى ، جرى جرياً قبيحاً يشبه جري الغربان. جرى كأنه يعرج بسبب الساق اليمنى، وبسبب الساق اليسرى أيضاً. اقترب منه الصبية فارتفع مرّة أخرى. ارتفع إلى أعلى أشباراً، وقطع إلى الامام

مسافة أشبار، قبل أن يسقط أرضاً. سقط سقطة مهينة، فاندس منقاره النبيل في التراب، وعندما انتزعه من الحضيض، من العار، وضرب به الفضاء لينفض عنه الغبار والذّلّ، رأى الصبيان في مقلتيه الكسولتين، المتعبتين، وميضاً، بللاً، دموعاً. قال صاحب العود النحيل بلسان لئيم :

- ألم أقل لكم بأنه عجوز؟

(٥)

تميل الشمس إلى الغروب فتتمدّد الظلال شرقاً، ويجود الشمال بأنفاسٍ نديّة، وتتراجع قلول الحرّ مع احتضار القيلولة، فيزحف الناس خارج الأخبية، ويلجأ الأكابر إلى ظلال البيوت لينجادلوا ويتخاصموا ويتنعّموا بظلال العشية وانفاس الشمال .

الزعيم أيضاً لجأ إلى الظلّ خارج الخباء .

جلس على نطع قديم لحسه لسان الزمن وجرّده من الصوف، وبدأ يتسلّى. وضع في حِجْره قطعة من خبز الشعير، وشرع يفتّتها بين يديه ويلقي بالفتات إلى الطائر الذي مضى ينحني على الشتات، ويلتقط الفتات بفتور ولا مبالاة، كأنه يأكل لا لأنّه جائع، ولكن لأنه يريد أن يتسلّى أيضاً. تمتم الزعيم: أأنت عجوز حقّاً. أنت عجوز إلى حدّ أن شيخوختك لم تُخفْ حتى على الصغار. الزعيم خلّص العجوز من يد الأشقياء

منذ أيام. خرج من وادي الرّتم عند حلول الظهيرة. فوجد الطائر يركض ركضاً مضحكاً، ويرفرف باستماتة محاولاً أن يتحرّر من الأرض، من وزر الأرض، من سلطان الأرض، ولكن هيهات ! لأن المخلوقات عندما تهرم، المخلوقات عندما تشيخ ويصيبها الوهن والعجز، تكون الأرض في إنتظارها، تكون الأرض قدرها، تكون الأرض وطنها الأبدي، وطنها الأخير، حتى لو كانت هذه المخلوقات كائنات سماوّية. حتى لو كانت المخلوقات ملّة من ملل السماء كالطير! ولو لم تكن الأرض بهذا النّهم، لو لم تكن الأرض بهذا اللؤم، لو لم تكن الأرض بهذه الحكمة، لما استطاعت أن تجد على الأرض تراباً تخلق به خلقاً، لأن ماهو تراب الأرض إن لم يكن عظام الخلق واجداث الأموات صارت في القِدْمة طعاماً للأرض؟ كيف تستطيع هذه الأمّ الحكيمة أن تخلق مخلوقاً يسعى إذا لم تتغذّ؟ ألم يكوّن أهل الصحراء في القدم، جسد الصحراء؟ وهذه هي العلامة. الطائر الهرم هو العلامة. الكائن إذا شاخ ثقل على الأرض، لأنها تجذبه، تشدّه إليها، تقول له أن الميعاد إقترب، والأجل الذي قُدّر لك فيه أن تعود إلى جوفي قدحان، وقد أنعمت عليك بالغذاء ماطللت حيّاً، واليوم عليك أن تقترب وتتأهّب لتكون غذاءً لمن بعدك، فينتاب المخلوق فزع، ينتاب الطائر فزع لأنه يحسّ بوهن لم يعهده، وبقوّة خفيّة تجذبه إلى أسفل الأسافل، فيخونه الجناح، ويتخلّى

عنه الجسد، وتبتعد عنه السماء، لأنه لا يعرف أن السماء نفسها، وطنه السماء، يعجز أيضاً عن تبديل رمز واحد في ناموس القدر، فيسلّمه للقدر، والقدر يدفعه إلى الحضيض، لينفّذ المشيئة القاسية ويعيده إلى الأرض .

سمع الصغار يتحدّثون عن الشيخوخة، ردّدوا كلمة «آمغار». (*) أكثر من مرّة، فلم يعرف عما إذا كانوا يتحدّثون عن الطائر، أم عنه هو .

(٦)

أقبل العرّاف فتحدّثا، مرة أخرى، عن جمال الشيخوخة، والنبل الكامن في كلّ حزن .

تربّع العراف بجوار الزعيم. طارد السراب في الخلاء. تابعه حتى ابتلع الأفق وتحوّل ألسنةً من لهب شفّاف. تناول حصاة. رمى الحصاة نحو الطائر. ذهب كعادته، إلى غايته من أبعد أرض:

- لم أرَ طائراً يستأنس الخلق من أول يوم إلاّ هذا.

ألقى الزعيم بحفنة من فتات الشعير، ولكن الطائر إكتأب. إزداد كآبة. إنكمش حول نفسه، ورمق حبيبات الخبز بلا اكتراث. ثم أغمض عينيه واخفى راسه بين جناحيه. تكلّم الزعيم:

(*) آمغار: الشيخ، العجوز، الزعيم، الجدّ.

- استأنس مكرهاً، استأنس لأنه وحيد ، مهجور ، ضائع. ضائع مثلنا. ثم لا تنس أنه عجوز . السرّ في الشيخوخة.

الشيخوخة شيء قبيح. هل تحدّث الناموس عن شيء أقبح من الشيخوخة ؟

ابتسم العرّاف. طاف حول الموقع. حام حول الغاية، ولكنه استمرّ يجوس في أبعد أرض :

- اخشى ان تكون كلمة الناموس في الشيخوخة ضد كلمة مولاي .

- أعرف أنك ستقودني إلى المملكة القديمة لتحدّثني عن جمال الحزن مرّة أخرى. أم أنّي أخطأت ؟

- لم يخطئ مولاي. ولكن آرائي في الشيخوخة، وفي الحزن لم أستعرها من جراب الناموس وحده. الأسلاف أول من ترك لنا هذه الوصيّة. الأسلاف هم الذين قالوا أن حزن الشيخوخة نبل، ولا يوجد في الصحراء أجمل من إنسان حزين. ألم يستنكر مولاي قهقهات الدهماء؟ ألم يطرد مولاي من المجلس أبابا منذ أيام عندما أفلتت منه ضحكة مسموعة؟ هل يفعل مولاي ذلك مراعاة لناموس الوقار، أم خوفاً من ناموس الحكمة؟

- ولكن ألا ترى ان الحزن الذي تتحدّث عنه هو ظلّ النهاية؟ ألا ترى فيه شبح الموت ؟

- لو لم يكن ظلاً للنهاية لما وجدنا فيه ظلاً لجمال. لو لم

يكن شبحاً للموت لما رأينا فيه شبحاً للنبل. السرّ دائماً في الموت.

- لماذا يتغنّى أهل الصحراء بالنهاية؟ لماذا ترك لنا الأسلاف ناموساً كاملاً في مديح الموت؟

- لأنهم، يا مولاي، جرّبوا أن لا شيء يستحق أن يُعبد كالموت. عبدوه لا لأنه حقيقة الصحراء الوحيدة، ولا لأنه الترياق الوحيد الذي تداووا به ضد علل الحنين وأوجاع الصحراء، ولكن السرّ، يا مولاي، في توقهم إلى السرّ. لأن الموت سرّ، وهم لم يتوقوا لشيء توقهم إلى السرّ .

رمى الزعيم بالفتات. نفض جحْره. تابع تدفّق السراب في الخلاء. قال :

- هل تريد أن تقول أنهم يعبدون الموت، يريدون الموت، لأنه سيكشف لهم سرّ الخفاء ؟

- هاهو مولاي يقترب من السرّ.

- ولكن ماذا يفيدهم أن يكتشفوا السرّ بعد فوات الأوان؟

- الحقيقة، يا مولاي، الحقيقة ! الحقيقة هي العزاء .

- ألا ترى أن من الغباء أن يطلب الإنسان موتاً ليتيقّن أن وراء الظلمة سيلاقي إلهاً؟

- هل تريد أن يقنعوا بالحياة في هذه الحدود الميّتة؟ أليس

ذلك أكثر بطولة من الحياة في حدود الصحراء الخرساء ؟

- أنا أريدهم أن يقنعوا بما وُهبوا. أنا أردتهم أن يقنعوا بالحياة في حدود الحياة .

- هل يرى مولاي حياة بدون حقيقة ؟

- ولماذا تلحّون في طلب الحقيقة في بلاد الخفاء ؟

- لأن، يا مولاي، لا حقيقة إلا هناك. لا حقيقة، يا مولاي، إلاّ في الخفاء.

- ما أقسى هذا !

تناول الزعيم حصاة. تمتم: «ما أقسى هذا ...» ، رمى الحصاة جانباً. قال :

- فلنعد إلى الطائر. سمعت الصغار يقولون أنه طائر لا ينتمي إلى قبيلة «أبيل - بيل».

نزل العرّاف المرتفع . اقترب من النبع . أخرج من عبّه مصائد لاقتناص الغاية:

- سواء كان الطائر «أبيل - بيل» أو طير آخر مشابه، فإنّ الطائر في عُرْفِ الناموس رسول .

سكت الزعيم، فمضى العرّاف في نصب الأفخاخ:

- شرع الطير أن يهاجر. واذا رفض الطير أن يهاجر فهذا فأل سيء يا مولاي !

لمعت عين الزعيم ببسمة. هل تبسّم الزعيم لأنه اكتشف

موقع الفخّ؟ هل ابتسم لأنه أدرك أن العرّاف لم يأتِ إلاّ ليواصل حوار الأمس عن ضرورة الهجرة ؟. قال :

- كيف تريده أن يهاجر إذا كان عجوزاً؟ كيف تريده أن يطير إذا كانت الأرض تشدّه إلى الأرض بالسلاسل، والجناح صار كسيراً ؟

- الطائر كائن مهاجر، والكائن المهاجر لابد أن يهاجر حتى ولو كان عجوزاً، لأنه سيخالف طبعه، وسيخالف ناموس الأشياء إذا لم يهاجر. الهجرة قدره يا مولاي .

- ولكن الشيخوخة تجعل البدن كسيحاً، وتزرع في الرأس بلادة، وتشدّ إلى الأرض بسلاسل الحديد، فكيف يستطيع الكائن المسكين أن يرتاد السماء، وينضمّ إلى قافلة السماء؟ إبحث له في ناموسك عن سبيل آخر، ولكن لا تطلب من المسكين أن يقف ضد إرادة أمّنا الصحراء .

اقترب العراف من الموقع خطوة أخرى. ضرب كفّاً بكف. قال:

- يا إله الصحراء ! هل يرى مولاي الطائر شائخاً إلى هذا الحدّ؟ ألا يرى مولاي أنه يرفض أن يطير لا عجزاً عن الطيران، ولكن لأنه يحمل إلى النجع نبوءة ؟

التقت نظراتهما. تقابلنا عند الموقع الخفيّ. حاما حول النبع الذي لا تبدأ ملل أهل العرافة سفراً إلاّ لتدركه. نبع غامض،

كتيب، يسمونه في لغتهم الغامضة: الإيماء .

رأى العراف أن الزعيم اكتشف الموقع. صاح :

- الشيخوخة وطن نبيل حقّاً يا مولاي، ولكنّها علّة لا تهدّد بدن مولاي أيضاً !

أشاح الزعيم بوجهه بعيداً. ابتسم. عاد إلى الخلاء. إلى لعبة السراب في الخلاء. ابتسم طويلاً. ابتسم لأنه اكتشف سرّ العراف. سرّ زيارة العرّاف. كان يعلم أن العراف لن يتأخر. كان يعرف أن العراف سيأتي رسولاً لمجمع الحكمة .كان يعلم أنهم لن يتركوا الأمر بسهولة. كان يعلم أنهم سيجيئونه فراداً وجموعاً، في العشيات وفي الأمسيات، كان يعلم أنهم لن يخالفوا له أمراً، ولكنه يعلم أيضاً أنهم لن يستسلموا بسهولة، خاصّة إذا تعلّق الأمر بأمرٍ أوصى به الناموس، خاصّة إذا تعلّق الأمر بأمر جبلوا عليه منذ أن وُلدوا حتى صار هم ديناً، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بالهجرة. لقد وجد هم المبرر، ورأى أنهم على حقّ في أن يستميتوا لتنفيذ مشيئة ورثوها عن أجدادهم، وقرأوها في نواميسهم، وجرت في دمائهم، فكانت هم حياة. ولكنه يعلم أيضاً أنهم لا يعلمون في أي أرض يقف، وفي أي صحراء وجد نفسه في السنوات الأخيرة، وماذا يعني أن يكتشف الإنسان بين يوم وليلة أن كل ما فعله في حياته ضائع، كل ما فعله في حياته ما كان يجب أن يفعله، وما لم يفعله لن يستطيع بعد اليوم أن

يفعله، لأن الزمان تبدّد بأسرع مما توقّع، وما كان يظنّه حياة، ما كان يعوّل عليه، قد انتهى قبل أن يبدأ، انتهى في الوقت الذي قرّر فيه أن يبدأ. بل قبل أن يقرّر أن يبدأ. يكتشف أن الحياة قد مضت في الساعة التي يتأهب فيها لكي يبدأ الحياة، ما يسمّيه أهل الباطل حياة. الآن يريدون منه أن يتزحزح كأيام الزمان القديم. يريدون منه أن يتزوّد من الأشعار بالحنين، ويتعلّق بالأفق الصارم، الغامض، اللامبالي، وينطلق. ينطلق نحو الأفق طلباً لما وراء الأفق. ينطلق نحو الأفق بحثاً عن الواحة الضائعة التي يعرف أنه لن يجدها. وعليه أن يأمل في وجودها إذا أراد أن يمضي في اللعبة لأن هذا هو دستور اللعبة. وكلما تكشّف الأفق عن فراغ، وعن مدى، وعن أفق أكثر قساوة، وأشد غموضاً، وأدهى في اللامبالاة، قاوم الغصّة، ولعن «وانتهيط » في السرّ وفي العلن، وتلهّى بأغاني الشحن، لأن المهاجر يكتفي بـ «واو» التي يجدها في الأشعار، إذا اكتشف أن لا وجود للواحة في الأرض. ولكن الشيخوخة تسخر من كل الخدع، وترى ما لم يره كل المهاجرين. ترى ما لا يراه العرّاف، ترى ما لم يره الناموس نفسه. هذا هو سرّ الشيخوخة، هذا هو سرّ الحزن الذي يقرأه العرّاف في عين الشيخ فيسمّيه جميلاً .

٣

الخروج

« يروق للطبيعة أن تخلق باستمرار، كما يروق لها أن تدمّر ما خلقت باستمرار، لأن الطبيعة غير مؤهلة لإبداع أيّ شيء يُعوَّل عليه » .

آرثور شوبنهاور

«العالم كإرادة ومظهر»

(١)

.. ولكنّهم يجهلون سرّه. ولكنّهم لا يعلمون لماذا يعاند الرقعة الوعرة كل يوم لينزل وادي الرّتم . لا يعلمون لماذا يعتزل هناك منذ الضُّحى حتى حلول الظهيرة. لا يعلمون لأنهم لم يسمعوا الأغنية، و لم يتلذّذوا بنشيد المجهول الذي يتخبّأ في أحراش شجرة الرتم. ولو علموا، لو سمعوا، لأدركوا أن الزعيم لن يرفض الإقلاع، لن يرفض أن يأمر القوم بالقيام، والإنفصال عن أمّهم الأرض، بسبب شيخوخة تشدّه إلى المكان، كما شدّت طائر السرب إلى أرض النجع. لو سمعوا لأدركوا أن الزعيم لن يخالف ناموس الأجيال حتى لو شدّه العجز بأقوى سلاسل الحديد. لو سمعوا لأدركوا أن في الأمر سرّ أكبر من الهرم، وأقوى من الشعور بالعجز، واعظم من خيبة الأمل التي يعيشها كل من بلغ من العمر عتيّاً، واكتشف أن السبيل الذي ابتلع الأجداد من قبل، هو نفس الهاوية، نفس الظلمة، نفس النسيان، الذي ينتظره.

سمعه أوّل مرّة بعد نزوحهم الوطن بأيام. نزل الوادي البكر، المفروش، في القيعان، بوشاح الرمل اللّميس، الموسوم بثنيات جذّابة، تذكّر بأول أيام الخلق، عندما خرج الجدّ من مملكته، ودرج في الخلاء أوّل مرّة. إلى هذا الفرش تسابقت أشجار الرّتم،

ولكن الحواشي الصخرية زاحمتها في المسافة التالية، وزرعت في المساحات الملاصقة للسفوح سيوفاً مكسوّة بحجارة، صقيلة، شذبتها سيول الدهر فتلامعت تحت شعاع الشمس، فلم تجد الأشجار مجالاً، فانكفأت حول نفسها، وتلاصقت، وأبدعت في العمق أحراشاً كثيفة تذكّر بالأدغال التي تصنعها أشجار النّخل في الواحات عندما تلتف حول عيون المياه، فتتضافر، وتتلاحم، وتتكاكأ، كأنها تخشى على العين من العين، كأنها تخفي العين عن الناس خوفاً على كنزها من الحَسَد. إلى شعاف هذه الأدغال يأوي الطير، يأوي الحمام، فيبني أوكاراً بديعة، يضع في الأوكار بيضاً، ويجثم على البيض، ليغنّي لحونه الرتيبة، عند حلول القيلولة.

في دغل الرتم أيضاً سمع أغنية الطائر .

لم تكن رتيبة أبداً كأغنيات الحمام. لم تكن ذات نسق وحيد كأغنيات الحمام. لم تكن مملّة كأغنيات الحمام .

في الأغنية يتنوّع الصوت، ويتعدّد الإيقاع، وتعلو الأنغام، وتتنزّل أنغام، ويشتدّ الأنين، ويصفو اللحن، يمتزج بولولة الريح في أعراف الرّتم، فيتغيّر الموّال، ثم يخفت النسيم، فيتراجع النحيب، ولكن الحلاوة الحزينة، ولكن الحزن الحلو، لا يتخلّى عن الأغنية، بل يزداد اللحن حزناً، فيزداد حلاوة ولذّة. يستقيظ في الصدر الجنّ، فيسمعون، ويتلذّذون، ويجدبون، ويطيرون به

عبر الزمان ليعيدوا له ما أخذه الزمان. لا يعيدون له الذكرى القاسية، المميتة التي تشعل في القلب ناراً، ولكنها لا تأتي أبداً بما مضى، ولكنهم يخطفونه إلى مكان لا وجود فيه للمكان، فيجد نفسه في زمان لا وجود فيه للزمان. مكان لم يصر مكاناً بعد، وزمان لم يتحوّل زماناً بعد، فيرى .. يرى ما حاول دائماً أن يراه، يرى ما أخفته عنه الصحراء، يرى ما سلبه منه الزمان، فيبكي .. يبكي كطفل، يبكي لأن الطفل وحده لا يجد عاراً في البكاء، يبكي لأنه إستعاد الطفولة الضائعة التي ظنّ أن الزمان، أن الشيخوخة، لن تعيدها إليه أبداً. يسكت الطائر، ولكنّه لا يعود إلى الوادي، إلى الصحراء، إلى المكان، إلى الزمان. يبقى في أرض الجنّ أمداً. يظلّ معلقاً في فراغ خالٍ من خصال الفراغ، محلّقاً في فضاء لا وجود فيه لخصائص الفضاء، هائماً في زمان لم يلد أحداً، لم يبتلع أحداً، لأنه زمان لم يُولد .

يسكت الطائر، فيتنزّل في الوادي السكون. السكون القديم، السكون الخفيّ، السكون المعادي، السكون المميت الذي يخبر، بلسانه الأخرس، ان الوطن الذي لم يعرف حدود المكان، و لم يعرف قيود الزمان، هو وطن الأحياء الوحيد، الوطن الذي يليق بالأحياء، بالحياة، لأنه وطن يقع خارج الحياة. فكيف لا يبكي مخلوق زار هذا الوطن يوماً، ثم وجد نفسه يرتدّ إلى القفص المطوّق بالوهن، والعجز، والشيخوخة؟ كيف لا يبكي

المخلوق الذي زار الوطن، وتعرّى له الخفاء، ثم وجد أمامه الخلاء الأبدي، الصارم، العاري، المغمور بذيول السراب ؟

(٢)

منذ أربعين عاماً أقبلوا عليه في المراعي البعيدة .

أقبلوا عليه بعد إنقطاعه بشهور .

أصابه داء الخواء الذي يُقال أنه لعنة ترافق الشعراء، فخرج إلى حدود الحمادة الغربية ليعتزل كما يفعل كل أهل الصحراء عندما يكتشفون، فجأة، أنّهم أُصيبوا بالدّاء الذي لا دواء له. ولكنهم لم يمهلوه. الأكابر لم يمهلوه، فأقبلوا عليه بعد غياب الزعيم بأيام. قالوا له أنه إبن أُخت الفقيد الوحيد، وعليه أن يتأهب لتولّي الزعامة. جادهم. يومها جادهم. كان يافعاً فجادهم. قال لهم أنه شاعر، قال لهم انه ليس شاعراً فحسب، ولكنه شاعر مُصاب. وعندما تساءل «أمّامًا» عن معنى كلمة «مصاب» أجابه ببلاهة قائلاً أنه مُصاب بداء أسمه الحزن، فتضاحكوا. تنكّروا للوقار وتضاحكوا، فسمع الأكابر يضحكون بصوت عالٍ لأول مرّة، فتعجّب أن يخالف الحكماء ناموسهم الخالد ويقهقهوا بسبب قول لم يرَ أنه يستحق أن يُضحك أحداً، ففكر أنهم ربما ضحكوا بسبب آخر، خفيّ، وليس بسبب الجواب .

ثم حشوا قبضاتهم في التراب إبعاداً لشر قد يأتي به الضحك، واستغفروا إله الصحراء ونذروا أن ينحروا شاةً عند العودة إلى المضارب، قرباناً يغسلهم من إثم الضحك. ثم .. ثم احكموا عمائمهم حول وجوههم، وأخفوا أنوفهم بعناية، واحتكموا إلى الناموس. قال «أمّامًا»:

– هل تريدنا أن نخالف ما لم يخالفه مخلوق في ملّتنا ؟

– للزعيم أبناء أكبر منّي عقلاً، وأكثر من كثيرين حكمة، فلماذا لا يرثون الزعامة عن ابيهم ؟

هتف «أساروف» :

– هل تريدنا أن نسلّم الطبل لأبناء زعيم مضى وترك في القبيلة إبن أخت؟ هل تريدنا أن نخالف ما أوصى به الأسلاف، وورثناه محفوراً في ألواح الناموس الضائع ؟

– ولكنّي شاعر. والشاعر لم يصلح للزعامة يوماً .

تدخّل «إيجابارن» لأول مرة. كان يحرث الأرض بسبابته طوال الحوار، ويرسم على التراب رموزاً بالأبجدية القديمة، ولكنه لم يتبيّن العبارة، لأن الشيخ الحكيم كان يمحو الرموز قبل أن تكتمل في عبارة. مضى ينحني على الرموز عندما قال :

– أن تتولى الزعامة لا يعني أن تتخلى عن قول الشعر يا مولاي !

نعم كان الحكيم «إيجابارن» أول من نطق اللفظ المقدس،

أول من وضع اللفافة الزرقاء على عمامته، والقى طبل الزعامة، طبل الحرب بين يديه، عندما نطق بكلمة لا تعنى في معجم اللغة شيئاً كبيراً، ولكنها هي الكلمة، وهي الكلمة الأخيرة، في قبائل الصحراء .

ساد الصمت. ولكن الحكيم مضى يحرث التراب برموز الأبجدية، ليمحو ما كتب قبل أن تكتمل العبارة، قبل أن تكتمل الكلمة .

سمع «أمّامًا» يقترح :

– نعم. حكيمنا لم يخطىء. تستطيع أن تقول الشّعْر سرّاً

– أقول الشّعْر سرّاً ؟

– نعم. تقول أشعارك سرّاً كما يفعل أكابر القبائل، وكما يفعل كل الزعماء .

– كما يفعل الزعماء ؟

– نعم. هل ظننْتَ أنّك الزعيم الوحيد في الصحراء الذي يروق له أن يتسلّى بقول الشّعْر؟ إعلم أن كل الزعماء، في الصحراء، شعراء .

– لم اسمع بزعيم قال شعراً .

– لم تسمع بزعيم قال أشعاراً لأنهم يقولون الشّعْر سراً كما قلت لك. يقولون الشّعْر سراً وينسبونه إلى الشاعرات أو الغرباء .

– ولكن هل بقي الشّعْر شعراً إذا قاله المرء سرّاً؟ هل يبقى الشّعْر شعراً إذا قاله المرء ونسبه لغيره؟

تكلمّ «إيجابّارن» مرّة أخرى :

– هكذا وجدنا آباءنا يفعلون يا مولاي!

انكفأ على التراب. غاب في رموزه. يحرث ويمحو ما حرث. يخط علامة ويمسح ما رسم، فيبدو غارقاً في دنياه، ولا وجود له بينهم. هذا ما جعله يحسّ بأن كلمة «مولاي» عندما تتلفظ بها شفتاه تبدو حاسمة، كأنّ المجهول هو الذي نطق بها.

(٣)

لم تمض سنوات حتى أقبلوا مرّة أخرى.

جرت في الوديان مياه سخيّة، وهوت في السماء شُهب كثيرة، وقال الشعراء في القبائل أشعاراً جديدة، بهيّة، وتغنت الصبايا بمواويل شجيّة، وهجع أكابر، وفقدت قبائل زعماء حكماء، فجاء الأكابر بأبناء أخوات الزعماء ليضعوا على رؤوسهم القطعة الزرقاء، ويقولوا لهم عبارة «مولاي» التي قيلت له في العراء يوماً قبل أن يُنصّب زعيماً على القبيلة، فأقبلوا مرّة أخرى، كما أقبلوا عليه في صحاري الحمادة الغربية يوماً. تقدّمهم «أمّامًا» كما تقدمهم ذلك اليوم، ولكن «إيجابّارن» الحكيم تخلّف، اليوم، عن الرّكب، لأن الحكيم القديم توقف عن زرع

رموزه في أرض الصحراء، ورقد في ضريح مهيب إلى جوار أجداده القدماء .

غاب الحكيم هذه المرة، ولكن «أساروف» سار إلى جوار «أمّامّا»، فرأى كيف يعلوا رأس أحدهما ويجتاز رأس قرينه بمسافة عمامة، ولكن رأس القرين الآخر يعود فيتفوّق، ويرتفع عن رفيقه بنفس المسافة، فتذكر أن هذا الوضع النبيل يسمّى في لغة الشّعْر «أميسرّاسن» *، عندما يتساوى القرناء في طول القامة، ويجعلهما الخطو المستمرّ يتفاوتان، كأنهما يتسابقان في الصعود إلى السماء .

أقبلوا مع العشية. لم يقبلوا عليه في خلاء الحمادة الغربية كما أقبلوا عليه يوماً، ولكنهم أقبلوا عليه في البيت الذي أختاروه في ذلك اليوم البعيد. أقبلوا عليه فأدرك، في الحال، لماذا أقبلوا. أدرك اليوم السرّ بعقل الزعيم، بعقل الزمان الذي تدفق مع السيول في الوديان، وتبدّد كسراب القيلولة ليبدّد معه الحياة. أدرك اليوم السرّ الذي لم يدركه يومها بحدس الشاعر، ذلك الحدس النبيل، الغضّ، اللذيذ، الذين جاءوا ليأخذوه منه في ذلك اليوم، فخنقوه في صدره إلى لأبد. خنقوا في قلبه الشعر، في ذلك اليوم المشئوم، فاختنق، وظلّ يحاول أن يتنفّس، أن يلتقط الهواء،

* «أميسرّاسن»: متفاوتان .

أن يستعيد طائره المفقود، فكان يشهق طوال هذا الزمان. يشهق بصوت فاجع، كمن ينتحب ويقاوم البكاء، لأن الإنسان إذا اختنق، و لم يجد سبيلاً ليلتقط الهواء، لا يملك غير البكاء. والرغبة الأبدية في أن يتنفس، في أن يستعيد طائره الضائع، هي التي جعلته ينسى المراسم التي رُسمت له ويغفل عن ناموس الزعامة، فارتكب خطيئة أخرى. خطيئة رأى الأكابر إنها لا تليق بالزعيم، فتنادوا، وتشاوروا، وقرّروا، فأقبلوا. كان يعرف ماذا سيقولون هذه المرّة. الزمان أخذ الحياة حقاً، ولكنّه منحه، بالمقابل، تميمة صغيرة أطلق عليها الناموس أسماء كثيرة: التجربة، العقل، الحكمة. بهذه التميمة يستطيع أن يقرأ النبوءة. نعم. سيقولون أن هذا لا يليق. سيقولون أن حياة الزعيم هي حياة القبيلة، ولا يليق بالزعيم أن يدخل بيته الشاعرة قرينةً بعد أن بلغ من العمر عتيّا. سيقولون أن قدر الزعيم هو أن يضحيّ حرصاً على مصير القبيلة، يضحي بالسعادة، كما ضحى بالعزلة، كما ضحى بالشعر يوماً. سيقولون أن الإنسان إذا دخل خباء الزعامة، فعليه أن ينسى الحب، كما نسي العزلة، كما نسي الشعر يوماً. في خباء الزعيم لا مكان لأيّ وهم، والحب وهم. الحب وهم كبير، الحُبّ أكبر وهم .

سيجادلهم. لن يسكت. سوف يجادلهم ببطولة. بطولة الرجل الوحيد، الرجل الأعزل، الذي وقع في كمين أعداء

مسلّحين بأشرس الحراب. سيقول لهم أنهم خنقوا فيه أنبل الأنسام يوماً. أماتوا في قلبه معشوقه الأوّل، وجاءوا اليوم، بعد مرور عشرات السنين، ليميتوا في قلبه عطيّة السماء، ليأخذوا منه العزاء الأخير، التعويذة الأخيرة، التي تهبها السماء قبل أن تأخذ من العابر كل شيء. في الماضي أخذوا منه كل شيء، فما ضرّهم، اليوم، لو تركوا له دميته الصغيرة، لو تركوا له قرينةً تقول الشعْر، إذا كانوا قد حرّموا عليه أن يقول الشعر؟ ما ضرّهم لو تركوا إلى جواره مخلوقاً وديعاً يغني له أشعاراً في أوقات الوحشة، مقابل تلك الأغاني التي سرقوها منه يوماً؟ ولكن .. هل يستطيع أن يقنعهم بهذه اللغة؟ هل يفيد منطق الطفل الذي أخذوا منه دميته في إقناع أهل العقل؟ هل يستطيع من ملأ قلبه بأقسى أقوال الناموس أن يفهم شاعراً منزوع اللّسان؟ هل يستطيع أبطال الحكمة، عتاة الآيات الصارمة، أن يفهموا لغة عاشق جريح؟

نعم .. يومها خانته الحُجّة أيضاً. يومها فشل أيضاً في إقناع التلّة الأبديّة، التلّة القاسية، التي لا تعترف بالشعر منذ أن استبدلته بأقوال الناموس، التلّة التي غابت عنها أسرار العشق منذ أن اعتنقت ديناً إسمه الحرص على مصير القبيلة، فاستنكروا عندما وجدوه يتحدّث لغةً ظنّوا أنه نساها منذ زمن بعيد. لغة قالوا إنها لا تليق بجلالة الزعيم، فهزموه. هزموه و لم يجد ما يفعله، عندما

خرجوا، إلاّ أن يشهق بالحسرة، أن يختنق بالفجيعة، لأن الفجيعة هي العزاء الذي تعوّد أن يتلهى به عندما يخلوا إلى نفسه منذ عشرات السنين .

(٤)

بعد الهزيمة كتب إلى المعشوقة رقعة قال فيها أن الزعامة لعنة لم يختزها، والقدر وحده، على ما يبدو، هو الذي قرر مصيره عندما جعله إبن أخت الزعيم الوحيد، و لم يكن يستطيع أن يتمرّد على إرادة الأكابر في ذلك اليوم البعيد، لأن ذلك لن يكون تمرّد ضد الأكابر ، ولكنه مخالفة يائسة لإرادة القدر . ولكن المرأة العاشقة لا تعترف بلغة المنطق، ولا تفهم سرّ الأقدار، وترى في الناموس حفنة من الكلام الميّت، حفنة من الكلام الميّت، حفنة من الكلام المميت. ولو كانت المعشوقة إمرأة فحسب لهان الأمر، ولكنّها إمرأة و .. شاعرة. شاعرة عاشقة أيضاً . فأي حجّة أرضيّة تستطيع أن تقنع شاعرة عاشقة؟ قبل أن تسافر وتهجر القبيلة إلى الأبد بعثت له رقعة أيضاً. رقعة غاضبة. رقعة قالت فيها إنها قررت أن تفعل ما كان يجب أن يفعله هو. قالت إن الإنقطاع في الخلوات النائية كان، في الماضي، قدر الرجال وحدهم، ولكن يبدو أن الحال تبدّل كما تبدّل كل شيء، فصار الرجال يدفعون النساء للإنقطاع، يدفعون النساء

للبطولة (لأن لا بطولة تفوق بطولة الانقطاع)، ويبقون هم محبوسين في البيوت. ثم .. جاءه خبرها. قالوا له إنها هاجرت. هاجرت إلى أرض مجهولة، فلم يرها أحد بعد ذلك .

أما هو فذهب إلى الخلاء ليدفن هزيمته هناك. ذهب إلى الخلاء ليقاوم الغصة القديمة، ليشهق بالفجيعة بدل أن يقول أشعاراً بهيّة، ويردّد أغنيات الأشجان. لأن طائر الأشعار طار وضاع، وصوت الغناء اختنق ومات .

(٥)

.. وهاهم يقبلون مرّة أخرى .

يقبلون كما أقبلوا قديماً في حدود الحمادة الغربية، يقبلون كما أقبلوا في مرّة ليأخذوا منه الشعر، وكما أقبلوا في مرّة أخرى، عندما أخذوا منه المعشوقة، عندما أخذوا منه الشاعرة، ليبقوه وحيداً، مهجوراً، لا أنيس له إلاّ العزلة والفجيعة والحياة التي بدّدها الزمان وصارت وهماً ككل الأوهام.

هاهم يقبلون اليوم أيضاً ليأخذوا شيئاً جديداً، فماذا تبقى ليؤخذ يا ترى؟ أم أنهم جمع خُلق ليأخذ، ولن يعدموا ما يمكن أن يؤخذ أبداً؟ نعم. نعم. لن يعدم الأكابر ما يمكن أن يؤخذ من بيت الزعيم. جاءوا اليوم ليأخذوا الطائر. ليأخذوا سرّه الذي أخفاه في دغل الرّتم، في أحراش الحرَم، في الوادي الذي حرّمه

على الدهماء عندما قال للرعاة والأتباع والعبيد: «من دخل وادي الرّتم، بعد اليوم، ضربت رقبته بالسيف ، فتجنّبه الجميع، ومُنعت عنه القطعان، وأوقف الفرسان على مشارفه عسساً. فعل ذلك إمعاناً في محو الأثر، إمعاناً في إخفاء السرّ الصغير. فهل اكتشف أهل الناموس هذا السرّ الصغير أيضاً ؟

هل يخلوا عليه بهذه الدمية أيضاً؟ هل أقبلوا ليأخذوا منه الطائر، الأغنية، السرّ، متسترين بضرورة الإقلاع، بناموس العبور؟

أقبلوا فخرج لملاقاتهم في العراء. هرع لاستقبالهم إجلالاً لـ «أمّامًا» نفس «أمّامًا» المعمّر، «أمّامًا» الخالد، الذي رافق أكابر اليوم الأول في الحمادة الغربية، ورافق الجمع في الحملة الثانية. اختفى كل الأكابر القدماء، أخذ الزمان «أساروف» في الحملة الثالثة، ولكن «أمّامًا» سار في المقدمة اليوم أيضاً. كان يتوكأ على عكاز أنيق من شجر الطلح، ويرتجف. يرتجف فيرتجف العكّاز أيضاً. عندما انتهوا من الحملة، وطلب أن يمهلوه أياماً فقط، قبل أن يشدّوا الرحال، أخذه «أمّامًا» على انفراد ليقول له: «لا تظن أني جئت خشية أن يُقال أن المُعمّر تأخر عن إقناع الزعيم بأمور الدنيا، لأنك تعلم أن من ترك الحياة وراء ظهره لن يضيره ما يُقال كثيراً، ولكني جئت لأن فأل السوء ليس أن يخالف الزعيم شرع جرى به الزمان ويرفض الهجرة، ولكن فأل السوء حقاً هو

أن يتأخر المُعمّر عن رفقة الأكابر إلى بيت الزعيم .. ثم ضحك بحزن وهو يهزّ العكاز أمامه ليقول مازحاً: ، جئتك اليوم بثلاثة أرجل، وأخشى أن أضطر في المرّة القادمة أن أستعير من الطّلح رِجْلاً رابعاً كي أصل إلىّ بيتك .

(٦)

في ذلك اليوم، في الساعات القليلة التي أعقبت خروج الطائر، في الزمن الصغير الذي أعقب إنطلاق الطائر من الأحراش، وإرتفاعه في الهواء، وإختفائه في متاهة الفضاء كما تختفي ذرّة الغبار في يمّ الفراغ، في ذلك الوقت الذي أحسّ فيه بالفراغ، بالوحشة، بهمّ فاق فجيعة السنين، فاق وجع العمر كلّه، فانطلق خارج الحَرَم. اجتاز أحراش الوادي، تسلّق السفوح الصخريّة الوعرة بحيويّة الفتيان، وصعد المرتفع المؤدي إلى المضارب. سار بخطوات واسعة، ناسياً أن الناموس رسم للزعيم أيضاً كيف يخطو، ناسياً أن الأسلاف لم ينسوا أن يضعوا القيد في قدمي الزعيم، ليعلّموه أن يحاكي الغرانيق في مشْيه. نسي الناموس، ونسي الأسلاف، لأنه نسي أنه زعيم. لم ينسَ، في ذلك اليوم، الزعامة فحسب، ولكنه نسي أنه يحمل في يده اليمنى طائراً آخر. يحمل في يده اليمنى الطائر العجوز الذي أقعدته الشيخوخة عن السفر، عن الالتحاق بالسرب الحميم. نسي أنه

لم يفقد في ذلك اليوم طائر الأحراش، طائر الغناء، طائر السرّ والبشارة، ولكنه فقد الطائر القديم، المكابر، اللامبالي، الذي صار له في الأيام الأخيرة أنيساً آخر. وحتى عندما قابل الأتباع، وأمرهم بأن يجمعوا له الأكابر، لم يلحظ دهشتهم، لم يلحظ كيف كانوا يسترقون النظر إلى يده اليمنى، ليتفحّصوا الطائر الميّت. وحتى عندما أقبل الحكماء، والتمّ الأكابر في الخباء، يتوسطهم ،أمّامّا، الخالد، لم يتخلّ عن الطائر الميّت. كان ما يزال يمسك بالساقين الطويلتين، ويهدْهد الجسم الهزيل، الذي زاده الموت هُزالاً وضآلة، حتى صار في حجم حفنة صغيرة من القشّ. تكلّم يومها فقال :

– خرج. خرج. لقد خرج. تستطيعون أن تبتهجوا، لأنه خرج.

تبادل الأكابر نظرات مشبوهة. نظرات عجب، ثم استنكار. لم يلحظوا الشحوب الذي زحف على وجنتي الزعيم، لأنهم كانوا يتابعون دبيب أصابعه الطويلة، النحيلة، على بدن الطائر، على ريش الطائر. تجاسر العرّاف، فتساءل :

– ولكن من الذي خرج يا مولاي ؟

لم يجب على السؤال. استمرّ يمسّد الريش بحنان أمّ تمشّط شعر ابنتها العذراء ليلة القِران. تنقّلت مقلتاه بينهم، تنقّلت بوجْد من خطفه الغناء، فرأى مالا يرى، فرأى ما تاق لأن يراه منذ

أبعد الأزمان. لم يرهم. كلّهم تيقّنوا أنه لا يراهم. قال :

– تستطيعون أن تتأهبوا، تستطيعون أن تشدّوا الآفاق منذ الغدّ. تستطيعون أن تفرّوا، ولكن اعلموا أنكم لن تستطيعوا أن تفرّوا من أنفسكم. أنا أعرف أنكم تريدون أن تفرّوا من أنفسكم، ولكنكم تعلّقون ذلك في رقبة الناموس لأنكم جبناء. نعم. أنتم جبناء. ها ها ها ..

ضحك. ضحك الزعيم. أطلق ضحكة عالية، حقيقية، مُنْكرة .

لم يضحك فحسب، ولكنه استعار لسان الدهماء وأهان المجلس. نعتهم بالجبن واستهان بالناموس. فهل من يجلس قبالتهم، الآن هو الزعيم الذي عرفوه، أم الجنّ استطاعوا أن يستولوا عليه، هنالك، في الحرَم، في وادي الرتم، ليستبدلوه بمخلوق آخر، كريه، من مِلّتهم ؟

تكلّم العرّاف :

– أنت محموم يا مولاي. أهون للمحموم أن يهجع .

تكلّم البطل، تكلّم ، أهلوم :

– لقد أصابت مولاي علّة. يستحسن أن نرسل في طلب العطّار .

ولكن حكيماً صارماً هدّده بسباته :

– بل أصابه مسّ. لا يتكلّم بهذا اللسان إلاّ ممسوس، فابعثوا في

طلب الساحر، لا العطّار .

هأهأ الزعيم بضحكة أخرى. ضحكة استخفاف، ثم احتضن الطائر الميّت، وقال:

– ما فائدة هذا كلّه إذا كنّا سنسافر غداً، وربّما اليوم؟ ألم تقولوا أن السفر ترياق لكل داء؟ هيّا. استعدّوا. بل قوموا وشدّوا الرحال الآن .. الآن .. الآن .. هيء هيء هيء ..

تنزّل على المجلس صمت. صمت قديم، صمت خفيّ، صمت لا مبالٍ، صمت معادٍ .

في الصباح خرج العرّاف إلى القبيلة ونطق بالعبارة التي خافوها دائماً، العبارة التي تجنّبوها كما لم يتجنّبوا النار، كما لم يتجنبوا الغزاة، كما لم يتجنّبوا الوباء: ,آمغار يزّارنغين,*

فأجهش الصغار والنساء وضعاف النفوس. أمّا الحكماء فاستسلموا للواحة القديمة، للصمت القديم، الصمت الصارم، المعادي، اللامبالي .

* الزعيم سبقنا.

٤

الإكليل*

« ما هو الحب؟ أليس هو ذلك الشيء الموجع الذي يجعل من الأصدقاء أعداء »

فيكرام سيث

« الفتى المناسب »

---

* تؤكد الأحيال أن هذه السيرة حدثت قبل أن تستقرّ القبيلة، وقبل أن يصير ها ضريح الزعيم وتداً يشدّها إلى الأرض، برغم أن رواة رأوا أنها سيرة يمكن أن تحدث في أي زمان، ويمكن أن نشهد وقائعها في ربوع أي قبيلة يقف على رأسها زعيم، ويقف إلى جوار الزعيم عرّاف .

(١)

الحزمة الأولى كانت محبوكة كحدائل الصبايا .

أقبل على خبائها قبيل الغروب، ووضع الحزمة الجليلة في حِجْرها. انحنت لتتفقّد الجدائل السّخيّة، فتنفّس الزهْر الخفيّ في وجهها. لمحت الأعراف النحيلة (التي يشبّهها الشبّان بخصلات العذارى، ويتجنّبون تسميتها أعرافاً) تتشابك في إلتحام حميم. تلتفّ خصلتان جانبيتان مكلّلتان بالزّهر الأبيض، البتول، الخماسيّ، حول خصلة تستقيم في الوسط، مكلّلة أيضاً بالزّهر الأبيض، البتول، الخماسيّ، كما يتلوّى ثعبان الأدغال على جذع الطّلحة؛ فيتلوّى الجذع أيضاً حول جرْم الثعبان كما يقول حكماء تلك القبائل. عود الوسط، المكلّل بزهرات لا تُكادُ تُرى، يكتسب مرونة خصلات الشّعر، ليلتفّ حول بدن الخصلتين الجانبيتين، فتتغيّب الأحرام النحيلة في الإلتحام الحميم، ولا يتبدّى من القِران سوى نثار زهرٍ ناعمٍ، لمّيسٍ، يوحي بكيان مخلوقٍ مغلوب. يستدير الكيان في إنحناءة قوسٍ مزموم، فيلتقي بشقّ يماثله في صرامة الحبكة، ودقّة الحِرْفة، والرغبة الجنونيّة الغامضة في خنق السّاق، في إخفاء العود، في محو الخصلات الثلاث، حتى لا يبقى في الجديلة غير زهور الرّتم، ويصنع لقاء الجديلتين قلادة نبيلة من خرز أبيض .

لم يكتفِ المبدع بخلق قلادة واحدة، ولكنه قدّم للحسناء في تلك العشيّة حزمةً كاملة. تنفّست الحسناء الزهر المكوّم في حجرها، وتبسّمت. تبسّمت بسمة لم يعهدها السّحرة إلاّ في خلْق أطال التحديث في الأبدية (كما يسمّون المعتزلة)، ورفعت أناملها في الفراغ، فرأى العاشق صف أسنانها السفلي، وضحكت. أطلقت ضحكة غريبة. ثم عطست مرّتين.

(٢)

نزل نجع القبيلة منذ شهور، تردّد على أمشيات الصبايا تحت ضوء القمر ليال. ولكنه لم يتدحرج على الأرض، ولم يخطفه حان الوحْد. كان يتربّع في الخلاء، فيبدو في جلسته المعتزلة وحيداً ككل الغرباء، مهيّباً كأكابر الجنّ. ولكن نفراً من أبناء القبيلة أكّدوا أنهم شاهدوه وهو يتمايل طرباً، ويطلق أصواتاً مبهمة ما أن يتمادى الوتر الوحيد في إمزاد، ويستلهم حلاوة اللّحون من كواكب السماوات، ومن ممالك المجهول. ولكن اليقين أيضاً أن الجنّ لم يخطفه في حضرة الصبايا، ولم يقع في الوحد كبقية الأقران.

فجأة انقطع عن أماسي البدر.

انقطع عن الأمسيات وظهر في المراعي. رافق رعيان الوديان السفليّة طويلاً فاقتفى أهل الفضول أثره إلى هناك أيضاً،

وعادوا إلى المضارب ليقولوا أنّهم سمعوه يغنّي ألحاناً مجهولة تشبه همهمات الجنّ في مغاور الجبال الزّرق، فأعجزهم الصوت عن تمييز اللّحون، ولم يفهموا في أغانيه كلمة واحدة. استجوبوا الرعاة عن مسلك الغريب، فقالوا أنه لا يغنّي في مجالس اللّيل، ولا يتكلّم أيضاً. وعندما طلبوا منه أن يشارك في أغاني الليل قال أن للغرباء ناموس آخر، وأغانٍ أخرى. كان الرعاة أكثر خلق الصحراء خبرةً بمسلك الأغراب، فتركوه، ثم تجنّبوه.

عاد إلى القبيلة.

عاد إلى القبيلة فاكتشف أهل الفضول اهتمامه بالشاعرة.

(٣)

آخرون قالوا أن الإهتمام ابتدأ قبل سفره إلى المراعي، لأن إلتجاء أهل العشق إلى خلوة المرعى صار ناموساً منذ هرع إلى الخلاء كل من أصابه الزمان بالطعنة المعروفة في ناموس العشق بـ «ضربة المخلب» (وهو تعبير مستعار من معجم السّحر قبل أن يبتدعه أهل العشق وينسبوه إلى أنفسهم)، والانضمام إلى الرعيان، كان دائماً مجرّد مبرّر للنسيان، ومحاولة سبقة إليها كل من تلقى الطعن، وأصيب بالعلّة الوحيدة التي أعجزت السحرة: الحُبّ! في حين أكّد فريق آخر أن علّة الغريب لم تبدأ إلاّ بعد عودته من الوطن الذي اعتاد أهل الحُبّ أن يدفنوا فيه داءهم

المميت. ولكن الجميع يعلم أن الأغراب أمّة غامضة إلى أبعد حدّ، كما يعلم الجميع أيضاً أن سرّ الغريب لن يكون سرّا حقيقياً إذا لم تكشف معدنه علّة الحُبّ .

غريب القبيلة أيضاً كان يحمل سرّا كما يليق بكل غريب، ولكن كثيرين رأوا أن سرّه الحقيقي لم يبدأ قبل إهتمامه بالشاعرة، فلمّحوا مراراً إلى أن الحبّ، في الحقّ، كان سرّه الوحيد.

القدر رتّب أوّل لقاء في ميعاد الليالي. تألق البدر في الأعالي، وتدفّق في الخلاء ضياء آخر. رفرف في الصدر طائر، وحنّ القوم للوصول إلى وطن الحنين. حنّوا فغنّوا. لأن الغناء هو الجناح الوحيد الذي يستطيع أن يبلغ ساحة الوطن، ويدخل مملكة المُلك الضائع. غنّت الشاعرة بصوت الحنين القديم، فتململ الطائر في القفص، ولكنه لم يفلت. ردّدت الحناجر اللحن وراء الشاعرة، ولكن الطائر رفرف أكثر، وهفا إلى الإنطلاق في الفضاء. فرّ مِنْ العيون دمع، وضاقت الصدور بحزنٍ خفيّ، فحاول أهل السّر أن ينفّسوا فأطلقوا الصيحات. صاحوا حتى بُحّت حناجرهم، ثم حجلوا، ورقصوا، وركضوا في العراء، ولكن همّ الطائر الحبيس غلبهم فضربوا رؤوسهم بالحجارة، ونزفت جباههم دماً سخيّاً. زحفوا على الرّكب، وتلوّوا على الأرض كالمجانين، و لم يدركهم الوجد إلاّ بعد سفر موجع .

بعد انتهاء الحفل رافق الغريب شاعرة القبيلة إلى خبائها .

بعدها شوهدا كثيراً وهما يتسكّعان في الخلاء، وفي الوديان المجاورة للنجوع .

(٤)

وضعت الحزمة في زاوية الخباء، وعلّقت في الركيزة قلاّدة سخيّة. كانت تعطس، وتسعل، وتغالب الدّوار والصّداع. رقدت تحت الرّكيزة، فتدلّت فوق رأسها الجديلة. تدلّت ولامست أنفها. أغمضت عينيها وطافت على شفتيها بسمة. نفس البسمة الغامضة التي يقول سحرة القبيلة إنها امتياز وُهب لمن عرف كيف يتقن التحديق في الأبديّة .

بعد قليل غزت الوجه حمرة، ثم شحوب. أحسّت باختناق، فشهقت بحثاً عن هواء. رفعت أناملها النحيلة في الفراغ كما فعلت عندما تلقّت العطيّة، ولكن الكف هوت وسقطت أرضاً. زحفت خارج الخباء، وبدأت تتقيّأ بصوت عالٍ.

(٥)

أقبل لزيارتها في مساء اليوم التالي. أقبل حاملاً حزمة جديدة من الجدائل. وضعها في حِجرها وتربّع بعيداً. تحدّث عن نوايا الصحراء، ومزاج القبْلي، ولكنه تجنّب التحدّث عن

الأشعار. غالبت الغثيان والدوار، واختنقت فيها الأنفاس، ولكنها مضت تداعب بتلات الزّهرة الخفيّة بأناملها، وتكتم في صدرها سعالاً جنونيّاً. إنصرف الزائر فوضعت الحزمة الجديدة فوق الحزمة المكوّمة في زاوية الخباء. في الركيزة علّقت قلادة جديدة أيضاً فغزاها شذى الرّتم. إنهارت. ركعت تحت الركيزة وأحست بالشلل يستولي على البدن كلّه. استنجدت بالعبد. طلبت منه أن يذهب لاستدعاء العرّافة .

العرّافة أوقدت ناراً. ألقت في النّار بحفنة من الشّيح وقطعة أخرى شاحبة، كريهة الرائحة، قالت إنها عقار نافع لمداواة علل الخفاء. وعندما رأت استفهاماً في عيني الحسناء أوضحت:

. لقد شممتِ عرق الجنّ. ينبغي أن تكفّي عن التسكّع في الخلاء عند حلول الغسق .

(٦)

لا حفنة الشيح، ولا القطعة الشاحبة ذات الرائحة الكريهة، نجحت في استئصال الدّاء. بل الصداع اشتدّ، واشتعل البدن بالحمّى، وظهرت على الجسم دمامل غريبة، فصارت تهذي، وتغنّي، وتذبل .

هرعت إلى حبائها القرينات، وجلسن فوق رأسها. أُستدعي العرّاف أخيراً، فأقبل على الخباء مخلوق نحيل البُنْية، طويل القامة، يلّف رأسه بلثام كثيف، ويملأ قبضته بحفنة من

الحصى. جلس في مدخل الخباء، وشرع ينقل حبّات الحصى من القبضة اليمنى، إلى القبضة اليسرى، ثم إلى القبضة اليمنى من جديد. وقد لاحظت كوكبة الصبايا كيف ينحني على الأرض ما أن تسقط حبّة حصى، ينحني بإهتمام من أضاع كنزاً، ويفتّش التراب، ولا يهنأ قبل أن يعثر على الحصاة، حتّى أن الحاضرات أكّدن أن الأمر لا يخلو من سرّ، وما حفنة الحصى إلاّ تميمة خفيّة من تمائم أهل السحر .

تكلّم العرّاف بعد سكوت دام طويلاً. شدّد قبضته على حفنة الحصى ثم أمر :

- إحرقوا الرّتم !

لم يفهم أحد. تبادلت القرينات نظراً. اختلس العبد إلى العرّاف نظراً ساخراً. ولكن العرّاف أمر من جديد :

- إحرقوا الرّتم !

تحوّلت نظرات الاستفهام إلى دهشة حقيقة، واحتار الجميع كيف يمكن أن تُحرق هذه الجدائل البديعة المحبوكة من زهور الرّتم. كانت زهرة الرّتم بهجة الصحراء، ووردة القبائل كلّها. يتنسّم أهل العزلة في شذاها أنفاس الواحة المفقودة، وتتغسّل العذارى بمائها ليلة القِران، وتُقام الأفراح ابتهاجاً بميلادها في أوائل أيام الربيع، وتتغنّى بجمالها أشعار الشاعرات، ويتكلّم بهائها الأبطال والفرسان. فما الذي أصاب عرّاف القبيلة حتى

يظنّ بها سوءً، ويأمر بحرق هذا الجسم المقدّس؟ همّ أحد العبيد بإخراج الحِزَم المكوّمة في الزاوية ففزّت الفتاة من فراش المرض، وانتهرته بسبّابتها. تراجع إلى الوراء، فقال العرّاف :

– إذا أردت الشفاءَ فأمُري عبيدك بحرق الرّتم، وابعثِ بمن يستطيع أن يأتيني بخرقة من لباس الغريب !

ظلّ الشّك يحوم في العيون. شلّ سبّبته أقوال العرافين دائماً. العرّاف لايكرر قولاً ولا وصيّة. العرّاف لا يكون عرّافاً إذا لم يبتدع قولاً لم يقله أحد. العرّاف لا بد أن يقول قولاً منكراً .

وضع حفنة الحصى في جيبه. نهض وأخرج أكوام الرّتم بنفسه. تركها في الخارج وعاد إلى الركيزة. ولكن العاشقة سبقته إلى الركيزة. خطفت جديلة وأخفتها في ثنايا ثوبها الفضفاض. ترنّحت فأسندتها إحدى القرينات. هجعت في فراشها وتبسّمت بغموض.

أشعل العرّاف ناراً، وأطعم النار زهور الرّتم. قال بقساوة تليق بعرّاف:

– إذا لم تأتوني بخرقة من لباس الغريب، فإن الصبيّة سوف تموت !

(٧)

ما حيّر القبيلة حقاً هو إنها سخّرت الرجال والنساء ليلتها

ليأتوا العرّاف بخرقة من لباس الغريب، فلم يعثروا له لا على خرقة ولا على لباس. استغفلوه ودخلوا بيته، تفقّدوا الوديان المجاورة التي اعتاد أن ينزهها ليصنع لمعشوقته جدائل الرّتم، بعثوا بفارس إلى المراعي البعيدة، وبرسول آخر إلى مغاور الجبال الزّرق التي اتخذها مأوى في الشتاء الأخير. ولكنهم لم يجدوا في البيت لباساً، ولا قطعة كتّان، ولم يعثروا في الوديان على مكان يمكن أن يخفي فيه شيئاً، وعاد الفارس من المراعي خائباً، ووصل من الجنوب رسول الجبال ليقول أنه لم يعثر في الكهوف إلاّ على رسوم الأولين. أيقن العقلاء أنه ساحر، وردّدوا لبعضهم وصيّة الناموس القديم القائلة: في قلب كل غريب ينام سرّ. لا يتغرّب ابن الصحراء بلا سبب.

في الخباء بدأت الحسناء تحتضر. اشتدّت الحمّى، وفقدت القدرة على إلتقاط النَّفَس. في قلب الليل أضاعت أنفس عطيّة في الحياة: النَّفَس. بدأت تبتعد، وتبتعد.

ابتعدت كثيراً دون أن تفارق بسمة الغموض شفتيها .

القرينات قُلن إنها ماتت كأسعد مخلوق !

(٨)

تجمّع الخلْق في مدخل خبائها. أقبل الزعيم. داهم الجمع فأفسح له الدهْماء السبيل. انشطر الجمع إلى صفّين. تقدّم حتى

توقف أمام العرّاف .

قال غاضباً :

- ما معنى هذا ؟

لم يتكلّم العرّاف. طأطأ وابتسم. أعاد الزعيم سؤاله بنفس اللهجة، فأخذه العرّاف من يده، وابتعد به مسافة في العراء. قال العرّاف :

- لست أنا يا مولاي من أعطى الإذن لغريب ليتمتّع بالمقام في ربوع القبيلة !

صاح الزعيم :

- هل تريد أن تقول القبائل أنّي خالفت الكتاب المفقود، وطردت غريباً جاء يطلب الأمان؟ نعم. لقد أذنت لغريب بالمقام في القبيلة، ولكنّي لم أعطِ إذناً لساحر !

قال العرّاف ببرود :

- لم يكن ساحراً يا مولاي .

- كل القبيلة تقول أنه ساحر. لو لم يكن ساحراً فكيف استطاع أن يخطف الصبية بزهور الرّتم المقدّس ؟

- في الأدغال تسكن قبائل إذا أحبّ فيهم شابٌّ فتاة قتلها!

- قتلها ؟!

- وإذا أحبّت الفتاة شاباً دسّت له في الطعام سُمّاً !

- لا أنكر أنّك أعلم الجميع بقبائل الأدغال، ولكني لم أسمع بأمر هذه القبيلة الفظيعة قبل اليوم !

- هناك يرون أن العاشق لا ينال معشوقاً إلاّ إذا أزاله من الصحراء !

- مجوس. هذه ديانة المجوس !

- غريبنا أحبّ فتاتنا حقّاً فأخذها !

- أخذها ؟

- نعم. هذه لغتهم. يقولون أخذها إذا أماتها .

صمت لحظة ثم أكمل :

- ولو أدركتموني بخرقة من لباسه لعرفت كيف أمنع فعله القبيح. ولكن الدّاهية يعرف هذه الحيلة، فحرص ألاّ يترك أثراً للباس منذ أول يوم .

- أطلقت الفرسان في أثره. سيأتي به الفرسان مقيّداً بحبال المسد .

- لن يأتي به الفرسان .

- لماذا تتكلّم باليقين ؟

- أعرف هذه الملّة. إنهم لا يُدركون أبداً .

- هل هو غريب من بلاد الإنس، أم جنّ من قبائل الخفاء؟

سكت العرّاف، ثم ابتسم بغموض. دحرج بنعله حجراً.

قال بصوت كالهمس :

- ولكنه سيعود .

حدجه الزعيم قبل أن يتساءل :

- أراك تتكلّم يقيناً .

أومأ العرّاف برأسه، و لم يجب، فتكلّم الزعيم :

- هل قرأت النّبأ في عظام القرابين ؟

هزّ العرّاف عمامته نفياً. في عينيه المطفأتين لمح الزعيم حُزناً غامضاً .

دحرج بنعله حجراً أيضاً، فبدا كأنّه يحاكي حركة العرّاف. انحنت الشمس لتقبّل الأفق الصارم الممتدّ كجرم قوس مزموم، فسكبت في الخلاء ألقاً أرجوانياً سخيّاً. تابع العرّاف الألق وهو يتدّفق ويغسل الحصى والعلّيق والحجارة. قال :

- اعترف لك يا مولاي: كنت أعرف أنه سيفعل ذلك .

دحرج الزعيم حجراً جديداً. توقف. حدّق في الفراغ ومضة. مضى يتمشّى من جديد. تكلّم العرّاف :

- لقد سمعته يا مولاي يقول: ينبغي أن نتخلّى عن الأشياء التي نحبّها أكثر مما ينبغي !

توقف الزعيم. ردّد بانتشاء المحاذيب :

- ينبغي أن نتخلّى عن الأشياء التي نحبّها أكثر مما ينبغي..

سكتت. تواصل سكوته في سكوت الصحراء ، فبدا كأنّ

الخلاء رأى أن يسكت ويتصنّت أيضاً .

في عيني الزعيم رأى العرّاف سكينة الزعيم. سكينة الحكيم. سكينة أهل العزلة. لم تكن تلك سكينة. إنها شيء أنبل. إنها طفولة. نعم. لا يكون الزعيم زعيماً إذا لم تفضح عيناه طفولةً. لا يكون الحكيم حكيماً إذا لم تفضح عيناه طفولة. لا يكون المعتزل جديراً بلقب معتزل ما لم تفضح عيناه طفولة. الطفولة هي الواحة التي أضعناها. الطفولة هي الواحة التي نبحث عنها. لاخير في عين خلت من طفولة. لاثقة في مخلوق لا تجد في عينيه طفولةً .

أعاد الزعيم كأنه يغنّي :

- ينبغي أن نتخلى عن الأشياء التي نحبّها أكثر مما ينبغي .. ما أقسى هذا !

مضى خطوات. شبك يديه وراء ظهره كما يفعل الرّاجل الذي انتوى أن يقطع مسافة طويلة مشيّاً على الأقدام. قال بصوت آخر :

- أتدري؟ كنت أحاول دائماً أن أقول قولاً كهذا ..

اعترف العرّاف :

- حاولت أيضاً، ولكنّنا لا نسمع ما نريد قوله إلاّ عندما يقوله الآخرون نيابةً عنّا. هذا سرّ الحكمة يا مولاي !

- صدقت .

حدجه العرّاف فوجد في عينيه بللاً كالدّمع .

(٩)

سالت وديان كثيرة في صحراء الشمال، وتعشّق فرسان كثيرون عذارى كثيرة قبل أن تسيل الوديان، وقالت الشاعرات قصائد أجمل عن الحبّ والحرب والعار.

واكتشفت القبيلة أنّها أقامت في المكان أكثر مما ينبغي، وارتأى الحكماء أن يتركوا الأرض لتصير دِمناً، فأمروا بقرع طبول الهجرة إلى الشمال .

في نفس الليلة التي قُرعت الطبول أطلق النذير النداء، فعرف الناس أمر الضريح. أقبلوا على المقبرة في سفح الرّابية، فوجدوا قبر الحسناء خالياً .

أقبل الزعيم فوجد العرّاف في انتظاره. تبادلا نظرة خفيّة تحت ضياء البدر، ثم إنطلقا في العراء كأنهما كانا على ميعاد. لم يتكلّما. لم يتكلّما حتى انقطع هرج الدهماء، وأيقنا أن الصحراء قد أصاخت السمع وبدأت تتصنّت. بدأ العرّاف :

– ألم أقل لك أنه سيعود؟

– نعم. اختفى في ذلك اليوم كأنه من أهل الخفاء، وعاد اليوم كأنه من أهل الخفاء !

– أنت لا تدري يا مولاي أنّه كان ينتظر ..

– ينتظر ؟

– نعم. انتظر أن ينال التّراب من عطيّة التّراب نصيبه !

– الحقّ أني لم أفهم ..

– أنتظر أن يأكل التراب اللّحم، ويترك له العظم ..

– وما الذي سيفعله الشقيّ بالعظام وهي رميم ؟

لم يجب العرّاف. لم يتوقّف .. لم يدحرج الحجارة بنعله. مضى يخطو إلى الأمام، كأنه قرّر أن يقطع الصحراء مشياً، أن يهاجر، أن يتخلّى. قال :

– سيصنع منها تمائم. تميمة في الرقبة. تميمة في ثُنيّة اللثام. تميمة في المعصم الأيسر. تميمة في المعصم الأيمن. تميمة على رأس السرج. التميمة إيماء، والإيماء لغة كل عاشق .

– هل قلت الإيماء ؟

أسرع العرّاف في خطوهِ دون أن يدري. العرّاف يعرف أن الصحراء إغواء. العرّاف يعرف أن الصحراء تستدرج. العرّاف يعرف أن الخروج إلى الصحراء سفر، لأن القارّة العارية لا تستضيف من خرج للتسكّع. لأنها لا تعترف بناموس غير السّفر. سبق الزعيم مسافة .

قال لاهثاً :

– العاشق أعلم النّاس ببؤس المصير يا مولاي، وهو يعرف أنه لن ينال شيئاً أبداً، ولكن ما يهمّه هو الإيماء. والتميمة هي الإيماء

الوحيد يا مولاي !

هرول الزعيم أيضاً. هرول بسرعة لا تليق بزعيم. لا تليق بحكيم، ولكنه وجد حرجاً في استبطاء العرّاف بنداء .

ابتعد العرّاف. تباعدت بينهما المسافة. ولكن الزعيم هرجل وراءه بعناد.

برطم بصوت غريب :

– الإيماء. ما يهم هو الإيماء ..

تفقّد الأفق المغمور بضوء كالنهار، فوجد أن العرّاف قد سبقه كثيراً. قال لنفسه بصوت مسموع :

– ينبغي أن نتخلّى عن الأشياء التي نحبّها أكثر مما ينبغي .. ما أقسى هذا، ما أجمل هذا !

تردّدت العبارة في الخلاء، فسمعها مرّة أخرى كصدى لنداءٍ مجهول .

٥

الخليفة

... إنه كمشاهد، معزول عن الجميع، ولكنّه يتابع المسرحية حقيقةً.

الأوبانيشاد

(١)

اليوم أقبلوا أيضاً .

أقبلوا اليوم كما تعوّدوا أن يقبلوا دائماً. يتقدّمهم ،أمّامًا، بعكّازة الصقيل، يسير بجواره العرّاف كما أعتاد أن يسير. أقبلوا ملفوفين في اللباس الفضفاض، اللباس الناصع، الموسوم بعلامة المناسبات، بالقطع الزرقاء؛ قطعة فوق اللثام، وأخرى حول المنكبين. أقبلوا كما اعتادوا ان يقبلوا عندما يخيّم على القبيلة شبح أمرٍ جلل، أقبلوا كما اعتادوا أن يقبلوا عندما يُقرع الطبل المهيب، الموشّى برموز الأولين، في خباءِ الزعيم، فيتنادوا، ويتجمّعوا، ويقبلوا، تلبية لنداء الزعيم. أقبلوا، اليوم أيضاً، فدبّ الوجل، وجاس الاستنفار في النجع، فخرج، من البيوت، الفرسان والشيوخ والنساء والصغار، ووقفوا في مداخل الأخبية بخشوع من ينتظر هولاً، أو يتوقع زلزلة، لأن القوم الذين استمرأوا المقام، واستسلموا لإغواء الأرض، اعتادوا، أيضاً، أن يروا في اللفيف الجليل، اللفيف الأزرق الذي يبدو، عن بُعد، موشحاً بالسواد، فيتزأوا للجميع جمعاً من الغربان، ينذر اجتماعهم بزعزعة الاستقرار، ومحو الاسترخاء، وحلول البلبال، وبداية كل عمل باطل .

أقبلوا اليوم أيضاً، فاستنفروا، بإقبالهم، القبيلة برغم أن إقبالهم

اليوم اختلف لأوّل مرّة عن إقبالهم منذ عشرات السنين. اختلف لأن الأكابر اعتادوا أن يقبلوا على بيت عامر، ولكنهم أقبلوا اليوم ليجدوا خباء الزعيم خاوياً .

في مدخل الخباء توقّف «أمّامًا» الخالد ليطلق آهة الشجن الطويلة، ليتوجّع بأنين الوداع الوحشي، أنين إنسان يحتضر، الأنين الفاجع الذي أودى بحياة الكثيرين، أنين سمعه الأكابر نواحاً مميتاً في ذلك اليوم، فاستفزّ من العيون الدمع، وأدمى قلوبهم بنزيف سخيّ، فترنّح المعمّر كما يترنّح بحاذيب الوجْد، فأسنده العرّاف من جانب، وأسنده «إيمسوان» من جانب آخر. صاح العجوز وهو يضرب ركيزة المدخل بعكازة الصقيل :

– كم مرّة دخلناك، أيها البيت، فوجدناك عامراً، واليوم جئناك فوجدناك خاوياً ؟

ناح بالأنين مرّة أخرى، فتدخل «إيمسوان» :

– يا جدّنا الجليل، هذا لا يليق !

مسح «أمّامًا» عينيه الدامعتين، مسح جفنيه الموشومين بتضاريس من التجاعيد حيث اختفى دمع العينين، ثم تكلّم :

– هذا يليق، وهذا لا يليق ! هذا يليق وهذا لا يليق ! أليس في لغة القبيلة لسان يتكلّم بعبارة أخرى غير هذه العبارة؟ ألم نقتل الزعيم نفسه بهذه اللغة؟ ألم نقل له عندما حاول أن يفهمنا بعدم نفع الشاعر للزعامة: «هذا لا يليق»؟ ألم نقل له عندما

رفرف قلبه وأراد أن يقترن بالشاعرة القديمة: «هذا لايليق»؟ ألم نقل له عندما أراد لنا خيراً، ورأى أن يستبطئنا في أرض سخيّة أطعمتنا وآوتنا: «هذا لايليق»؟ فلماذا لا نعترف ونقول أننا نحن الذين قتلناه بمدْية إسمها: «هذا لا يليق»؟.

قال العرّاف :

– يُحسن بمولاي أن يتصدّر المجلس إكراماً لربّ البيت. لأنّ الزعيم سيظلّ يتململ في بيته الجديد، ولن يهنأ حتى نفرغ من اختيار خليفة ربّ البيت .

وافقه الجمع بهمهمة جماعية. أجلس العرّاف المعمّر بجوار الركيزة، في قلب المجلس، وجلس بجوارة، على جهة اليمين. ترنّح المعمرّ مرّة أخرى :

– استجرنا بك من مظلمة فآمنتنا، وأحتكمنا إليك فانصفتنا، ولجأنا إليك فأطعمتنا، فأين ذهب مولاك؟ أين اختفى مولانا أيها البيت ؟

حاول أن يسطّر على الأرض رمزاً فغلبته الرجفة. دسّ كلتا يديه في التراب كما يفعل السحرة عندما يتطيّرون من شرّ، وتنهّد. لم تكن تلك تنهيدة. كانت آهة أخرى، أنيناً عميقاً، يخرج به الشعراء وجع الشجن، ويطفىء به الحكيم حزناً: «هيـ يـ يـ يه ..» فردّدها الجمع وراءه. ردّدها الأكابر كأنهم ستجيبون لنداء مجهول، فخرجت من صدورهم كزفرة المحتضر في الغمضة

التي يلفظ فيها أنفاس النزع الأخير .

(٢)

لم يتبدّد الحزن، وجمرة الوجع تحت الرماد لم تمت، ولكن حياء الأكابر لم يمنع الأكابر أن يستسلموا للأحزان طويلاً، فاستبدلوا سيرة الفراق بسرد المآثر، والتغنّي بالمديح. قالوا أنه لم يكن زعيماً فحسب، ولكنه كان أخاً لكل فرد في القبيلة. قالوا أنه عاش يتيماً من الأهل والأقارب، و لم يدركوا، لدهشتهم، فقده للأم والأب، للأخ وللأخت، للصديق وللقريبة إلاّ عندما فقدوه. قالوا أنه وُلد وحيداً، وعاش وحيداً، وخرج من حياة القبيلة وحيداً. قالوا أنه الزعيم الوحيد، في تاريخ القبيلة، الذي لم ينفرد برأي، و لم يرفض للمجلس طلباً، و لم يتخذ قراراً دون الرجوع للمجلس. قالوا أنه الزعيم الوحيد في تاريخ القبيلة الذي وهب حياته من أوّلها للقبيلة، فكان أن يخل عليه المجلس بكل شيء، ورفض أن يتنازل ويحقق له أصغر أمنية. قالوا أن الأبوين بخلا عليه بأخت تنجب له إبن أخت يكون له خليفةً، كما بخلوا عليه هُم بقرينة تنجب له إبناً يرثه عندما يعدم وجود إبن الأخت، فانتهوا إلى أن فجيعتهم فيه ستكون أكبر، لأنهم لن يجدوا لجلالته بديلاً. ترنّح «أمامًا» مرّة أخرى، وكاد المعمّر القديم أن يعيدهم إلى الوطن الذي فرّوا منه، فتدخّل العرّاف،

وقال أن عليهم أن ينحروا قرباناً لروح الفقيد. راق لهم الاقتراح، فهلّلوا باستحسان جماعي. هرع العبيد وحرّوا إلى الضريح المهيب عنزةً سوداء .

(٣)

نحروا العنزة السوداء، وجاءوا بغلام مشطور الرأس بشعر كثيف، ينتصب إلى أعلى، كعرف الدّيك. غمروا يديه بدم الأضحية، جرّوه إلى بنيان الضريح .وضعوا يديه على الحجارة، فكتبت الأصابع العشر العلامة التي حفظتها ذاكرة الأجيال. قالت الأصابع في العلامة المزبورة بالدم: «هذا دمنا نحن يا مولانا افتداه دم الإبن. هذا دم الإبن يامولانا افتداه دم العنزة السوداء». وقف الأكابر بالجوار، وردّدوا التميمة في خشوع: «هذا دمنا، هذا دمنا، هذا دمنا». سكتوا زمناً قصيراً. تلقفوا التميمة الثانية: «هذا دم إبننا. هذا دم إبننا. هذا دم ابننا». توقفوا مرّة آخرى. تسابقوا لترديد التميمة الأخيرة: « هذا دم العنزة السوداء قربانا إليك.. » ثلاث مرّات أيضاً. ثم ركعوا، وترنّحوا، وغنّوا على رأس الزعيم وصيّة الأسلاف: « إيكْرهْكيْ آكاهَلْ، تموسَدْ آكيدَجْ* » .

* أصبحت مِلْكاً لكل زمان، وسلطاناً على كل مكان .

غنوا حتى فاضت عيونهم بالدمع، ثم جلسوا يتلذّذون بالشواء، ويتجادلون في أمر الخليفة. تكلّم «يمسوان» فقال أن القبائل اعتادت أن تنصّب أبناء أخوات الزعماء خلفاً للزعماء، فإن انقطعوا فالأبناء، فإن انقطعوا فأعقل العقلاء. ولكن «أمّامّا» خرج من وطنه الذي حوى الأوطان، لأنه وطن كلّ مكان، وتحرّر من زمن كل زمان، لأنه زمن الأزمان، وعاد إلى الصحراء، إلى القبيلة، إلى المجلس، إلى الميعاد بجوار الضريح. هدّد «يمسوان» بسبابته ممازحاً :

– أراك قد قفزت، فاسمح لي أن أصحح لك الوصية. الناموس يقول أن القبائل تختار العرّاف إذا انقطع الأبناء. العرّاف ورد، في الوصيّة، قبل أعقل العقلاء. أم أنّ الذاكرة خانتني مرّة أخرى، فرأيت ما لا يُرى، وسمعت مالا يُسمع، وقلت ما لا يُقال؟

ابتسم العرّاف بدهاء العرّاف. تكلّم العرّاف بدهاء العرّاف:

– لم يذهب الناموس مسافة أبعد من الأبناء. الناموس حرّر أيدي العقلاء في اختيار الخلف إذا عدم الزعيم أبناءً، وفي رأي قبائل أخرى أن « آنهي» غسل يديه من الأمر كلّه إذا عدم الزعيم أبناء الأخت، فكانت المجالس تختار أغراباً عن بيت الزعيم حتى لو أنجب أبناءً. أمّا العراف فإن الشرائع كلّها أعدّت له مكاناً بجوار الزعيم، وليس في مكان الزعيم. هذا كان منذ أقدم زمان،

فلماذا يحاول مولانا «أمّامّا» أن يتنصّل ويقرأ علينا وصايا في الكتاب الضائع لم نقرأها و لم نسمعها قبل اليوم ؟

ترنّح العجوز يميناً ويساراً، رمق العرّاف بنظرة كآبية، ولكنها نظرة تنطق باندفاع الصبيان القديم أكثر ممّا تنطق بتعب الشيخوخة. قال :

– ألم أسمعكم تقولون أن الكتاب قال: « ..أعقل العقلاء »؟ أم أن السمع خانني مرّة أخرى. هل تحسنون الظنّ بـ «أمّامّا» الذي فقد العقل من قديم، وصار النسيان وطنه الأول من قديم، لتولّوه أمر القبيلة، وأمر أنفسكم ؟

علّق « يمسوان »:

– حكيم صار النسيان وطنه أهون من حمقى يتباهون بالعقل، حتى إذا عبس الزمان، واقترب الخطر، هدّدوا حياتنا وحياة القبيلة بعقولهم .

تدخّل البطل « آهلّوم» :

– لم يبق أمامنا إلاّ القرعة. أحتكموا إلى سلطان الخفاء بأعواد القرعة.

ولكن «أمّامّا» سفّهه بخشونة :

– بل نحتكم إلى صاحب الأمر .

تساءل أكثر من صوت :

– صاحب الأمر ؟!

قال «أمّامًا» وهو يتأهب للعودة إلى وطنه:

– الزعيم. علينا أن نستشير الزعيم.

تبادلوا آراء جانبية. هلّلوا باستحسان. ردّدوا :

– أحسنت. أحسنْت. كيف فاتنا أن نستشير الزعيم منذ البدء ؟

(٤)

في الخباء تحلّقت النساء حول العذراء .

غسّلن جسدها البتول بالماء النّفيس، ودلّكنها بالمراهم المستحضرة من زهور الرتم، ومشطن لها من شعرها جدائل بهيّة، ثم زغردت لها العجائز وبشّرنها، في الأغاني، بالهناء، لأنّها ستصير قرينة للزعيم .

خرجن بها من الخباء مع العشية، ولكنهن لم يبلغن المرتفع المتوّج بالضريح إلاّ قبيل المغيب. شيعتهن العجائز بالزغاريد ومواويل الأشجان، وفي الطريق غنّت الشاعرة أشعار الحنين والموت والقران، فكانت الرفيقات يرددن اللحون الشجيّة وراءها، فيستبدّ الوجد بالفرسان، فيرتجفون، ويدمعون، ويفرّون خارج البيوت، ليتابعوا الموكب الجليل دون أن يجرؤا على الاقتراب خطوة واحدة. يمضي الموكب، يعبر العراء السمح المفروش بحجارة رمادية كئيبة؛ الحجارة التي عرفت مواقد

الأوّلين، لأنها لم تكن سوى أكواماً لأضرحة أخرى، أقدم، كدّسها الأسلاف عندما كانوا يحرقون موتاهم، ولكن الزمن بعثر الحجارة، والقِدْمة سوّتها بالأرض، والريح أعادها سيرتها الأولى، فصفّفها في المدى، ورتّبها في خلاء ، الحمادة ، السخيّ بالحجارة، ليعيدها إلى الحال القديم، ولولا اللّون، لولا القتامة الخفيّة، لولا بشرة الرماد التي تلبّست الحجارة، لما أدرك أحد أن هذه الرقعة لم تكن سوى مقبرة هائلة من مقابر الأوّلين .

اقترب الموكب من موقع الضريح فازداد خطو النساء بطءً، لأن المراسم الأولى التي رسمت السبيل (سبيل القرينة إلى بيت القرين) أرست قانون المسير، وقضت أن تهتدي الأنثى في الخروج، بهدي السيرة الأولى عندما كانت الأنثى، نفس الأنثى، تخرج، بالقوّة، من بيت الأب، تُخطف خطفاً إلى بيت القرين، فجرى الناموس بالأمر، وصار التردّد شرع الخروج. تقدّم الأنثى خطوة نحو قدرها، وتؤخر خطوة خوفاً واحتراساً. تمشي إلى الأمام لأنها تعرف أنه لا بُد أن تخرج يوماً، وتتباطأ، وتتلكأ، وتندم، لأنها تعرف إنها لن تعود إلى الوراء إلى الأبد، فتستنجد الكوكبة بكنوز الشعر، وتستعين على المأزق بالأغاني الحزينة التي تهيب بالقرين أن يترّفق بالقرينة، الأغاني التي تحثّ القرين أن يرى في قرينته مخلوقة بائسة، خُطفت من بيت أهلها غصباً، وتحثّ القرينة أن تكون لقرينها أرضاً، لكي يكون لها سماءً .

بلغ الموكب اعتاب الضريح، فبعث مجلس الحكمة برسول ينوب عن العقلاء في التفاوض من النساء. بدأت المفاوضات بلغة التَوْرية، وتغنّت ألسنة النساء بأمانٍ كثيرة أردنها للعذراء، فهرع بها الرسول إلى المجمعْ، ليعود إلى الموكب، في كلّ مرّة، قائلاً أن المتكلّمين باسم القرين قالوا أنهم سوف يحقّقون الأمنيات، وسيبنون للعذراء، لو أرادت، بيتاً بين الأرض والسماء .

تشجعت النساء، فاقتربن من الضريح خطوة أخرى، خطوات أخرى، ثم ركعن، وأجهشن في بكاء موجع، قبل أن يسلّمن كنزهن، ويضعن يد العذراء في يد العرّاف .

(٥)

انتهت مراسم الزفاف .

بدأت طقوس النبوءة .

انفضّ الجمع، وتفرّق الأكابر. في الخباء الذي انتصب فوق الضريح جلس العرّاف، يهمهم بالتمائم السريّة، ويتشبّث بمعصم الحسناء. بدأ التعاليم بصوت خفيّ :

– كل امرأة ستجد نفسها يوماً تنتحب في الرّكن، والرجل يمسك بمعصمها، والحسناء محظوظة أكثر من كل الصبايا إذا أُختيرت للدخول على الزعيم في بيته الأبدي .

علا نحيب الصبيّة. تمتمت همساً :

– ولكنّي أخاف ..

– من حق صبيّة تدخل بيت الرجل الذي يمسك بالمعصم أن تخاف، لأنّ الرجل قرين الوجع، ولكن مما تخاف الحسناء إذا نامت بجوار رجل نام إلى الأبد؟

خَفَتَ نحيب الفتاة. انتظمت الأنفاس في صدرها البكر. همست بصوت كوشوشة الريح في أحراش الرّتم :

– أخاف الظلمة، أخاف الوحدة، أخاف .. القبر !

– العزلة شرط النبوءة يا بنيّتي. لا تنسي أنّك ستعودي للقبيلة بالنبوءة في الغدّ.

زفرت بعمق من تخلّص من عبء، ولكن معصمها في يد العرّاف استمرّ يرتجف.

عاد العرّاف إلى التعاليم :

– ستهجعين بعد قليل. ستتوسّدين حجر الحَرَم. لا تخافي لأني سأكون بالجوار. تعلّمي ألاّ تخافي من وحشة، أو من عزلة، أو من خفاء، في مكان يرتاده العرّاف. سأكون قريباً لأنّي عرّاف، وقدر العرّاف ألاّ ينام. ستنعسين. وعندما تنعسين ستسمعين هرجه. فلا تخافي. بعد الهرج تقبل النحلة. ستسمعين طنين النحلة فلا تخافي. يذهب الطنين فيأتي مولانا في الحال. يأتي ليتكلّم. اسمعي جيّداً ما يقول. اسمعي وتذكري كل كلمة. قد يبدو لك كلامه غريباً أو غامضاً، أو مضحكاً، ولكن احترسي:

لا تنسي، ولا تستهيني. لا تنسي ما يُقال، ولا تستهيني بعبارة قد تبدو خالية من المعنى. لأن ماسترينه خالياً من المعنى قد يفوق ماسترينه ذات معنى، فاحترسي!

وشوشت العذراء بفضول العذراء :

- ولكن هل يظنّ مولاي أن مولاي سيظهر؟

- قد يظهر أيضاً إذا راق له أن يظهر، ولكن ما يهم هو العبارة. تذكّري أن طنين النحل سيسبق، في كل الأحوال، فانتبهي!

(٦)

أقبل العرّاف فجراً، ففوجيء بخلق يحوم حول الخباء. ظنّهم دهماء من أهل الفضول، ولكنه تبيّن ملامح البطل، فهتف :

- ظننت من حقّ العرافين وحدهم أن يسهروا الليالي، لأن قراءة الأنباء في جيوش النجوم مهنتهم. فأجابه البطل مازحاً :

- ولكن مولاي ينسى أن القبائل لا تذهب لإيقاظ العرّاف عندما يداهم النجوع خطر، ولكنّها تتسابق إلى خباء البطل .

استفهم العرّاف بقلق :

- خطر ؟

- بلاء ألمّ بقرينة مولانا الزعيم .

- بلاء؟!

- حمّى في البدن، جنون في العين، تقطّع في النّفس يذكّر بمرارة النزع الأخير .

اقتحم العرّاف جمعاً يسدّ المدخل. تفرّق الجمع وأفسح له الطريق. في الداخل تكأكأت النساء حول الفتاة، وانزوى بعض الشيوخ في الزاوية. كان الخباء يختنق بمراهم حادّة، كريهة الرائحة، مخلوطة بروائح أعشاب غامضة دُسّت في أمتعة العجائز طويلاً، كما تُدسّ التعاويذ، فصارت لها رائحة عظام قديمة تحترق، فلم يستطع أن يميّز في المزيج المزعج سوى رائحة الشيح. اختنق بالدخان، وأصابته الأبخرة بالدوار، فهجم على جمع النساء، وصاح ينتهر العجائز :

- أوقفن هذا! أبعدن هذا!

أفسحن له في الجمع سبيلاً فأبصر الفتاة: في وجهها رأى شحوب الأموات، في حين اشتعل جسدها كلّه بالمسّ. تنتفض، تتمدّد، ترتجف بعنف، حول شفتيها فرّ زبد كثيف، من فمها تسيل خيوط اللعاب، تهدّلت جدائلها الفاتنة، وتشتّت الضفائر في شعيرات شعثاء عفرها الغبار .

تحلقت حولها نساء، بينهن عجوز كئيبة، تعاند بدن الفتاة بيدين نحيلتين كحطبتين، مفتولتين بضفيرة سخيّة من العروق. فوق رأس الفتاة وقفت امرأة صارمة أيضاً. من يديها تتدلّى

مبخرة فخارية. بدّلها الاستعمال الطويل، وحرقها الجمر، فصارت سوداء كقطعة من الفحم. من وعاء الفخار انبعثت الروائح الخرافية المميتة، فدبّت المرأة الجهمة بين موقد المدخل وجمع النساء كلما خبا الجمر في الوعاء. سدّد إلى المرأة نظرة وعيد، وقال بلهجة وعيد :

– ابتعدي!

تراجعت المرأة إلى الوراء خطوة، فقالت العجوز بوعيد آخر :

– يتدخل العرّاف وهو أول من يعلم أن العذواء إذا أصبح الصبح، وخرجت من خباء القرين، صارت من نصيب النساء ؟

– ولكن القرين الذي خرجت من بيته العذراء ليس ككل قرين. إذا خرجت العذراء من بيت زعيم هجع صارت من نصيب العرّاف. لأنك تعلمين أن ممرة القران، في هذه الحال، ليس وليداً، ولكنه نبوءة .

– أنظر ماذا فعلت نبوءة العرّاف بعذراء القبيلة. ذهبت في طلب النبوءة، فعادت من دنيا الخفاء بمسّ .

– تصابون بالمسّ وأنتم تتسكّعون في الخلاء، وتستنكرون أن يصيبكم المسّ وأنتم تستجدون نبأ من إنسان صار من سكّان الخفاء ؟

– ولكنها، يا مولانا، تحتضر. الفتاة ستدرك الزعيم وتسكن

الضريح قريباً إذا لم تأتوا بساحر يفكّها من أسرر الجنّ.

– هل قالت شيئاً؟ فليخبرني كل من سبقني إلى هذا المكان عن كلّ قول حتى لو بدا لكم لغواً وثرثرة .

– إنها تهذي. لم تكفّ المسكينة عن الهذيان منذ أيقظتنا صرختها الأولى .

انحنى العرّاف فوق رأس العجوز فلامس طرف عمامته لفافة اللحاف. تكلّم بصوت مكتوم كأنه همس :

– ماذا قالت في الهذيان؟ لو عصرتِ رأسك وتذكّرتِ قولاً واحداً في ما تسمينه هذياناً فسوف أدفع لك كراءً جزيلاً .

ومضت مقلة العجوز في ضوء النار. ومضت بألق غامض، وفرّت الشفة العليا الموسومة بثنايا التجاعيد. قالت :

– ما أصعب أن يستعيد الهذيان إنسان يحتضر مَنْ عبر أرض اللعب والدُّمى، وبلغ الشطّ الآخر من الوادي.

اقترب العرّاف من أذن العجوز. ألح بصوت كالفحيح :

– في الهذيان يكمن السرّ. في لغو المسوس تتخفّى النبوءة.

زفر وأضاف بيقين العرّاف :

– في لغو المسوس تتخفّى أعظم نبوءة، فاحترسي!

سكتت العجوز. أسبلت جفنين مكسوّين بالغضون أيضاً. ولكن اليدين لم تتوقفا عن معاندة جسد الفتاة. تكلمت أخيراً.

تكلمت دون أن تفتح عينيها. تكلّمت كعرّافة حقيقية:

- تِكْرَهِميْ أدَّارغ ..

توقفت. أرتجفت في وجهها التجاعيد. تكاثفت الثنايا. ازدادت عروق جيدها النحيل بروزاً، فتحوّل حبكة من العروق. تكلمت بلسان الفتاة، بلسان النبوءة :

- تِكْرَهِميْ أدَّارغ، إيكَوَ نكْرهغ أمّوتَغْ. *

ردد العرّاف بذهول :

- تِكْرَهِميْ أدَّارغ، إيكَوَ نكْرهغ أمّوتَغْ .

ردد النبوءة مرّة، مرتين، مرّات. انتصب. رفع رأسه إلى أعلى. قال كأنه يخاطب السماوات :

- النبوءة. هذه هي النبوءة. ننحر القرابين ونسعى في طلبها أجيالاً، وننسى إنها ترقد بين شفتي ممسوس، أو تتوارى في فم مخلوق نسمّيه مجنوناً. فماذا كان سيحلّ بقبائل الصحراء لو خلت الصحراء من النبوءة ؟ ماذا كان سيحلّ بنجوع فقدت زعماء، لو لم يبعث الزعماء من مملكة الخفاء نبوآت في ألسنة أهل المسّ، فيتيرون السبيل لقبائلهم في غيبتهم؟ هل سمعتم صوت زعيمكم أخيراً؟ أليست هذه لغته؟ ألم يرق له دائماً أن يتكلم بالأحاجي؟

* امتلكتموني حيّاً. سوف أمتلككم ميّتاً .

انتقل إلى الزاوية الأخرى حيث تجمّع الأكابر. قال كأنه يخاطبهم جميعاً. بل كأنه لا يخاطب أحداً، لأنه في تلك الساعة كان متهمكاً في مخاطبة قبائل المجهول :

- أليس ما سمعتموه هو الجواب الحكيم الذي يليق بزعيم؟ ألم يقل لكم قولاً لم يكن يستطيع أن يقوله لكم عندما كان بينكم؟ ألم تمتلكه حيّاً؟ ألم تمنع إقترانه بمعشوقته الشاعرة؟ ألم تجبره على قبول زعامة كانت له قيداً؟ ألم تأته زرافات لتجرّه إلى الخلاء غصباً؟ ألم تبخل عليه أن يستمتع بأغنية الطير؟ فهل تشكّون أن هذا الصوت الذي سمعتموه الآن هو صوت زعيمكم القديم؟ هل ستشكّون مرّة أخرى في قدرة الأموات على تنفيذ الوعيد؟ هل تنوون أن تستهزوا بالوعد؟ أم أنكم ستحتكمون إلى الحكمة، وترتضوا زعامة من امتلكتموه حيّاً، فأقسم أن يمتلككم من وراء ستار؟ هل تشكّون بعد الآن أن الزعيم سيبقى عليكم زعيماً إلى الأبد؟

التفت إلى الخلق الذي تزاحم في مدخل الخباء. صرخ بأمر:

- انحروا القربان! كيف يستقيم أمر النبوءة إذا لم تُسفح لها دماء القرابين؟ كيف تريدون من إلهة النبوءة أن تشفي من مسّ الخفاء إذا لم تتخضّب بالدّم؟ هاتوا المعزة السوداء إذا كنتم تريدون للصبيّة الشفاء. هاتوا أكثر معزاتكم سواداً إذا كنتم تريدون أن تروا

الدواء الذي لا يُقارن ببخار الجدّات الكريه.

انطلق الأتباع والعبيد. عادوا من العراء بأكثر المعزات سواداً. سلّموا العرّاف مدية النحاس. اقتحم العرّاف جمع النساء. أمر بصرع الأضحية بجوار الجسد المسكون. همهم بالتمائم القديمة التي لم يفهم أحد يوماً في رموزها لفظاً واحداً، فتحدّثت الأجيال عن غموضها لعلّة القدْمة، فقيل إنها لغز لأنها كُتبت باللغة الأولى التي اندثرت وزالت ونُسيت، ولم ترث القبائل من لسانها إلاّ الألفاظ المبهمة التي تنطق بها التمائم، فلا يعرف ها العرّاف نفسه أي معنى .

جرّد المدية من الغمد المزخرف بالتمائم أيضاً. لمع نصل المدية في ضوء النار، ورسم في الفراغ رمزاً. نزل الكاهن على نحر القربان بالنصل النهم، ففرّ دم جزيل جداً. حشرج الحيوان واختنق بأوجاع النزع الأخير، فتزمّن النحر مزيد من الدم. تناثر الدم ولوّث نحر الصبية وجيدها، ووجهها، فأصاب البدن تبدّل. بدأ الجسد المزموم يسترخي، وهدأ التوتر في عضلات الوجه، واختفى إيماء المسّ من العينين، وتوقف في الفم نزيف الزّبد، وبدأت الأنفاس تنتظم وتستعيد الإنسجام الضائع .

استولى على البدن الشقيّ سكون عميق، وتمتمت الشفتان في غيبوبة النعاس :

- تكْرهَميْ أدّارغ، إيكوَنكْرهَغْ أمْوَتَغْ .

خارج الخباء، في قوس الأفق الممتد شرقاً، انبثق قبس وليد، مومئاً بميلاد فجر يوم جديد. تمتم العرّاف: «صدقت. نحن قوم لا ندرك من أمرنا شيئاً ككل قوم، ولكننا نعرف أن لا أحد يصلح حقاً أن يخلف الزعيم أحسن من الزعيم نفسه .

٦

العاشق

«الذي تزرعه لا يحيا إن لم يمت»

رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس

«الحجر يعبّر عن ذلك الجانب من الذات الذي ينتصب معتزلاً، مشدوداً إلى الطبيعة»

كارل غوستاف يونغ

روح عطارد

(١)

التأموا للإجتماع في مجلس جديد، فابتدأ العرّاف :

– من يستطيع أن يخلف الزعيم غير الزعيم؟

أُجيب بالسكوت فألقى سؤالاً جديداً :

– من استطاع أن يأتي للقبيلة بزعيم يصلح خلفاً للزعيم نفسه فليتكلّم .

لم يتكلّم أحد .

أعلن العرّاف :

– نفينا في نفسه الزعامة في زمان كان فيه زعيماً، ونصّب نفسه علينا زعيماً عندما انتقل إلى الخفاء، فهل تستهين بالخفاء وتتجاهل النبوءة ؟

أشار بسبابته إلى حجارة الضريح. تكلم بصرامة :

– هذا الكوم هو كنزنا منذ اليوم، فهل تدرون بماذا أجابني عندما ساءلته عن الأسفار ؟

لم يستطع الوقار أن يكبح الفضول. فشلت الحكمة في التظاهر باللامبالاة، خسر الكبرياء عراكه القديم في احتقار شؤون الدنيا، فانطلقت الألسن في هتاف جماعي: بماذا قال؟ أجبنا: بِمَ أجاب عن سؤال الهجرة؟، ابتسم العرّاف بخبث الدهاة، وتعمّد أن يتباطأ في الجواب. تعمّد البطء ليؤجج في الصدور نار

الفضول، ويحرق قلوب أكابر احتقروا فيه هفته في طلب النبوءة دائماً. سكت طويلاً. ثم تكلّم. لم يتكلّم كما اعتاد أن يتكلّم، ولكنه تنازل عن وقار الكُهّان، أيضاً، و .. غنّى. أسدل لثامه على عينيه، وشيع رأسه إلى الأعالي، وتمايل كما يتمايل محاذيب أهل الوجد، و .. ردّد النبوءة بالصوت الملحون: «تفا لم آمضال، تكّام آمضال، ما تكّام ؟» * تنزّل على المجلس سكون. ذهب الجمع وراء الرسالة بعيداً، وتأمّلوا المجاز طويلاً، ثم هتفوا «مسلك مَنْ نسي أمراً: «هل قال مولانا هذا حقاً؟». لم يجب العرّاف، فتدخل الإنسان الوحيد الذي حمل القِدْمة على منكبيه، فانتزع الحقّ في أن يتكلّم بالقول الفصل:

– هذه لغة تليق بمولانا. هذا لسانه حقّا. وهذه حكمته. ألا ترون أن الامتثال هو ما تبقى لنا ؟

احتجّ أنصار الأسفار بهمهمة، وتقاربت عمامات، وتناطحت رؤوس، وتظاهر أكابر بتبادل الشورى مع أكابر، ولكن «أمّامّا» الأقدم عهداً لم يمهلهم. تناول عكازه الصقيل، وانسلّ خارج الخباء .

(٢)

تتكلمت ألسُن بالإعتراض، وذكّرت أفواه بوصايا الناموس

* تزكون تُراباً، وتهاجروا إلى تراب، فلِمَ المسير ؟

التي حذّرت من مغبّة الإستسلام لإغواء الأرض، فتولّى الزعيم أمرهم جميعاً، وأخبرهم على لسان العذراء بنبأ جديد. قالت النبوءة: «يسُّوكال أوادم بيواي إيما نَيت، مايكّا ؟» *

ردّدها العرّاف في لحن شجي جليل. ففرّ من عينيه دمع. ردّدها طويلاً قبل أن يرسل في طلب النّذير. أقبل النذير فأوكل له المهمّة. خرج النذير إلى النجوع ليبشّر بالنبوءة، فأعقبته العذراء إلى بيت العرّاف حاملة نبوءة جديدة. قال الزعيم على لسان العذراء: «إيتكّمْ إتّقلمد دِيغْ يوهزن»**. فبكي العرّاف مرة أخرى، وناح بالأغنية محدّقاً في أفق المدى، مترنّحاً على طريقة المأخوذين الذين خطف الغناء عقولهم. أمضى وقتاً طويلاً في سفره الخفيّ، وعندما عاد أخيراً، صرف العذراء، وأرسل في طلب النذير من جديد .

(٣)

تسكّع في الخلاء أياماً، وعاد من الخلوة بوحي: استدعى رجلاً اشتهر بمهارته في تشييد الأضرحة، وعُرف في القبيلة كعاشق لمملكة الحجارة. جالسه خارج الخباء في ظلال العشيّة. تربّع وقال :

* يسافر الإنسان حاملاً نفسه، فأي مسير هذا ؟

** إنما ذهبتم، فستعودون من مكان قريب .

– هل آمنتكم أخيراً بعدم جدوى العبور؟

دسّ العاشق عمامته في الأسافل، وشرع يفتّش التراب بالأصابع بحثاً عن حبيبات الحصى. يلتقط الحبّة بيمناه، فيودعها راحة يده اليسرى. أجابَ على السؤال بعد زمن :

– آمنّا أم لم نؤمن، فإن الخفاء سيبيّن حتى بعد أجيال أصواباً فعلنا أم خطيئة ارتكبنا .

– هل أفهم من هذا أن ضيفي فضّل أن ينحاز إلى فريق أهل الشكوك ؟

– ضيف مولاي لم يفضل الإنحياز إلى أي فريق، ولكنّي أتحدّث عن مشيئة الأقدار . في مسير الزمان جواب عن سؤال مولاي .

تابعه العرّاف بفضول. نصب ركبته إلى أعلى، وترك الفخذة الثانية طريحة الأرض . قال :

– لم أبعث في طلب الضيف الوقور لأجادله في أمر الأسفار في كل حال، ولكنّي أردت أن نتشاور في أمر آخر .

مضى العاشق ينبش التراب، ويجمع الحصباء في راحته باهتمام. قال :

– لم أشك في هذا أيضاً، لأن العرّاف لا يرسل في طلب مخلوق لكي يجادله في أمر السماء، أو شأن من الشؤون التي أعتدنا أن أمرها لا يهم إلا أكابر مجلس الحكمة .

– مهلاً، مهلاً ! ها أنا أرى ضيفي يوشك أن يضلّ السبيل، فالحق أنّي أرسلت في طلب ضيفي الوقور في أمر له علاقة حميمة بالسماء ..

توقف العاشق عن حرث التراب بالسبّابة، شيّع إلى العرّاف نظرة مستفهمة لأول مرّة. أضاف العرّاف :

– رأيت أن أحيط ضريح مولانا ببنيان، وأنت تعلم أنّك الإنسان الوحيد في كل القبيلة الذي يستطيع أن يتقن الصنع .

سقطت من الكف اليسرى حبيبات، فالتقطها بخفّة من أضاع كنزاً، ثم قال :

– آمل أن أكون عند حسن ظنّ مولاي، ولكني لا أفهم الحاجة الداعية إلى بناء ضريح حول الضريح .

– أقمنا ضريحاً لمواراة أجساد الأموات، ونقيم ضريحاً لإيواء أجساد الأحياء !

– الحق أني لا أفهم ..

– علّمنا الأسلاف أن نشيّد بنياناً واحداً حول عظام الإنسان الفاني لأننا أمّة عابرة، ندفن موتانا اليوم لنرحل غداً، ولكن الناموس لم يترك لنا وصيّة بشأن الموتى الذين قررنا أن نجاورهم إلى الأبد، لأنهم صاروا لنا قدراً منذ ذلك اليوم الذي باتوا فيه سبيلنا الوحيد إلى السماء.

اختلس إلى الجليس نظرة من وراء اللثام، فوجدا أصابعه

تسعى في التراب بهمّة جيوش النمل، فابتسم قبل أن يمضي :

– نهتدي اليوم في حياتنا بالقبس الذي يأتي من الضريح، كما يهتدي العابر بالنجوم، وكما أهتدى أسلافنا من قبلنا بضياء الناموس المفقود .

– بدأت أفهم. مولاي يريد أن يعوّض الركيزة التي فقدناها ببنيان يستعيد دور ركيزتين في آن: ركيزة تهاوت برحيل الزعيم، وركيزة ستهوى بعد أن تطوي الأحبية إلى الأبد لتصبح طعاماً للعثّ والسوس .

تجاهل العرّاف إيماء الضيف، وتكلّم بلغة الإيضاح :

– سيتكاكأ الناس على الضريح فضولاً، وسيأتي آخرون طلباً لنبوآت شورى لا وجود لسرّها إلا في غيب لا يعلمه إلاّ اهل الغيب، وسيقبل العابرون أيضاً، وستبعث القبائل برسل تفسيراً لإشارات، أو استجداءً لمشورات، وستزاحم المِلل، وسيكثر الخلق، ولن تجد حول المكان، بعد حين، موضعاً لقدم، ولن تستطيع العذراء أن تتمدّد أو تستلقي، أو تهجع. فأسرع، وجدْ في تشييد البنيان، واشطر البنيان إلى ديارٍ ثلاث: دار تكون بيتاً للضريح، ودار تصلح مقاماً للعذراء، ودار تنفع ساحة لنحر القرابين، واستقبال الزائرين والرسل وطلاّب النبوءة .

أفلتت من بين الأصابع حبّة حصى، فتفحّص الأرض بعناية، ونبش التراب مُفتّشاً، ولم يتساءل إلاّ بعد أن التقطها :

– وكيف يرى مولاي صورة البنيان ؟

– عن أي صورة يتحدّث الضيف الوقور ؟

– أردت أن أقول أن صورة الضريح تقوم دائماً في جسم مستدير لأن الأوّلين عندما ابتنوا أول بيت لأوّل الأموات أرادوا أن يُحاكوا الخفاء، فشيّدوا ضريح الخلاء تشبّهاً ببيت الأبد، فأيّ صورة سينال ببنيان يُبنى فوق هامة بنيان ؟

– الحق أنّي لم أفكرّ في هذا أبداً .

– يدري مولاي أن الاستدارة قَدَر كل جسم في الصحراء.

– الحق أني لم أفكّر في ذلك قبل اليوم .

– يعلم مولاى أن للذهب جسم مستدير .

– الذهب؟!

– لهذا السبب يسك الحدّادون هذا المعدن في مسكوكات مستديرة عندما يصنعون الحلي ومقتنيات الزينة .

– الحق أنّي ..

– للحيّة أيضاً صورة مستدير .

– الحيّة ؟

– مولاي يعلم أن الحيّة لا تأتي فعلاً بلا سبب خفي أبداً، فإن استدارت، والتفّت حول نفسها ففي ذلك سرّ ..

– ماذا تقول ؟

– للصحراء أيضاً جسم مستدير .

– مهلاً ..

– ويقال أن الحية لم تستدر إلاّ محاكاةً للأمّ التي أنجبتها ..

– ولكن ..

– إيبا. إيبا، يا مولاي، أيضاً في جرم مستدير *

– إيبا ؟

– فإذا كان «إيبا» مستديراً، فإننا نستطيع أن نجزم أن للخفاء أيضاً جسمه المستدير .

– انتظر ..

– لهذا السبب أبى الآباء إلاّ أن يبتنوا أول «إدَبْنِي» ** مستديراً .

– تستطيع أن تشيّد البنيان على أي صورة تشاء، ولكن ..

– أنا، يا مولاي، مخلوق لا يشاء لأني لا أنوي أن أستهين بنواميس الخفاء، ولا أريد أن أتطاول في البنيان اجتهاداً .

– صدقت. أردت أن أقول أن ما يهمني هو البنيان، أما صورة البنيان فهي من شأن حكيم البنيان .

– ظننت أن العرّاف سيفوقني حرصاً على ناموس الخفاء،

---

* إيبا: الروح .

** إدبني: الضريح

خاصة إذا تعلّق الأمر بشكل حجارة ستكون للناس حَرَمًا .

– شأن العرّاف كل أمرٍ خفي، أمّا ماظهر وتبدّى لأنظار الناس، فقد صار ملك الناس .

توقف عاشق الحجارة عن نبش التراب. تمتم بوشوشة من يخاطب نفسه :

– ألَنْ يهم العرّاف أن يعلم أن للنبوءة أيضاً جسماً مستديراً ؟

تأمله العرّاف بفضول. تساءل بالوشوشة أيضاً :

– النبوءة ؟

ولكن العاشق هب واقفاً. سرح في الفراغ بعيداً، ونقل حفنة الحصى من القبضة اليسرى إلى القبضة اليمنى، ثم إلى القبضة اليسرى من جديد، قبل أن ينطلق دون أن ينطق بكلمة وداع .

(٤)

قبل أن يهشّ العاشق جيش الأعوان إلى السفوح المجاورة ليبدأ اقتلاع الحجارة، بعث إلى العذراء بوصيّة تقول: «سأبني لك بالأيدي قبراً لم يبنه أجدادك لآبائهم، و لم ترَ الصحراء لبهائه مثيلاً . فقبل أن العذراء ابتسمت بغموض عندما تلقّت الوصيّة، ولكن الدعابة الغريبة لم تثر فيها انفعالاً جليّاً، فظلّت تجيب

بالبسمة الخفيّة كلّما ذكّرتها بالوصيّة قرينة، أو أعاد لها العاشق قراءة الوصيّة أثناء لقاءاتهما العابرة في العراء، أو بين المضارب، في أمسيات الإختفاء باكتمال القمر .

سرح العاشق علىّ رؤوس المرتفعات الشمالية، وحصد حجارة الروابي مستعيناً بالعاطلين والدهماء وجموع الصبيان. وعندما فرغ من الشعاف المجاورة، زحف غرباً، وبلغ أحاضيض الجبال الأبعد، فجرّد سفوحها، وتسلّق الأعالي، فقيل أنه كان يعلّم الأتباع، ويحثّ أهل العون أن يحاكوا مهارة الطير في صنع العشّ المستدير، إذا شاؤا أن يفلحوا في إبتداع الحجر البهيّ، الحجر المستدير. وقيل أيضاً أنه شدّ آذان البلهاء مراراً، وساقهم إلى الأمكنة التي اعتاد الطير أن يخبىء فيها أعشاشه لا ليريهم براعة الطيور في حبك بيوتها، ولكن لينتشل من الأعشاش البيض الأبقع، الوديع، ليدفعه في وجوه البُلداء قائلاً: «هل رأيتم عجائب الطير؟ ألا ترون أنه لا يبني عشّه وحده على النسق المستدير، ولكنه يلد بيضه أيضاً مستديراً؟ ألا ترون أن الجسم الذي لا يولد في بيت مستدير لا يعيش؟ ألا تعرفون أن البنيان إذا لم يقف مستديراً لا يصلح للحياة؟ هل ظننتم أنّي معتوه مثلكم لأني أريد أن أعلمكم أن تتبعوا السبيل الذي تقود إليه الصحراء؟».

بلغت الوصايا أذان العرّاف، فقال الرواة أنه كان لا يكف عن الابتسام. ربّما لأن العاشق لم يخاطب جموع الدهماء بنفس

اللسان الذي خاطبه به في تلك الليلة، فشعر نحو الحكيم بالإمتنان، لأنه لم يوجّه إهانة إلى الحكمة عندما أبى أن يستخدم لغتها في مخاطبة قوم يعادون الحكمة، ويشكّون في نوايا أهل الحكمة .

بدأ العاشق، أخيراً، في تشييد البنيان. شذّب الصخورة، وسوّى ألواح الصلد، وتحوّلت الحجارة بين يديه قطعاً من عجين، فكان أهل النجع يرمقونه بإعجاب وهم يرونه ينهمك في صنع الأحجار بلهفة عاشق حقيقي. وتحوّل الإعجاب إلى دهشة عندما أبصروا قيام أبنية متداخلة ثلاث ذات قباب دائرية جليلة: شيّد فوق الضريح بيتاً مستديراً، ذات قبّة مستديرة، وابتنى بالجوار بيت العذراء، وجعل بينهما باباً مقوّساً، دائرياً أيضاً، فصار الدخول إلى حَرَم النبوءة مشروطاً بعبور دار العذراء. ثم ألصق بالبيتين داراً ثالثة، تفضي إلى بيت العذراء من الجهة المضادّة، بباب مقوّس، مستدير، وجدران مستديرة، وشعفة مستديرة في الأعلى، وقال للقوم أن اسمها «دار القرابين والأضاحي» .

لم يكن البنيان أعجوبة لأن سلالة العابرين اعتادت ان تتجنّب الأبنية، ولم تعرف في سبيلها إلاّ قبور العابرين، وأضرحة الأولين، ولكن لأن الحكماء أكّدوا أنهم لم يروا للبنيان مثيلاً حتى في أكثر الواحات رفاهة وترفاً، فغاب عن العقلاء أنفسهم

الشبه الخفيّ الذي استعاره حرْم البنيان من أضرحة أسلافهم وقبور أجدادهم. وهو حرْم أرجعة القوم إلى افتتان عاشق الحجارة بالجسم الدائري، وإيمانه الغريب باستدارة كل جسم خفيّ .

(٥)

انتهى العاشق من عمله فجالس العرّاف. أثنى العرّاف على البنيان، وردّد له: ,أحسنت, مراراً، وتحدّث عن بهاء الأبنية التي رآها في واحات الصحراء، وانتهى إلى القول أن القباب فاتنة حقّاً، ولكنها صارمة أكثر مما ينبغي .

استمع العاشق صامتاً. كان ينكفىء طوال الحوار على الأرض، يلملم الحصباء، ويجمع حبّات الحصى في كوم صغير. تكلّم دون أن يشيّع رأسه :

– ألا يرى مولاي أن الصرامة من سيماء الخفاء ؟

– صدقت. صدقت. ولكن لا تنسَ أننا أردنا بالبنيان أن نجذب إلى الضريح خلْقاً .

– لن ينجذب الخلق إلى الضريح بحرْم البناء، إذا لم يجذبهم حبّ النبوءة .

– صدقت أيضاً، ولكن مهلاً؛ هل تشكّك في مقدرة الوعاء على الإغواء ؟

ألا ترى أن أهل العبور ليسوا سوى أطفال كبار يجب استدراجهم بالدُّمى إذا أردت أن يتبعوك ؟

– لم آتِ ببدعة يا مولاي، ولكلّ لهو أو لعب ناموسه القديم .

– ماذا تريد أن تقول ؟

– قلت ما يجب أن يُقال، كما فعلت، قبلها، ما يجب أن يُفعل. قلت أن علينا أن نكتشف الإيماء في كل شيء، كما يجب علينا أن نحتكم إلى وصايا الأولين إذا دبّ بيننا الخلاف في أمر. أم مولاي ينتمي إلى الصفّ الذي لا يقرأ هذه الوصايا إلاّ في بقايا الكتاب المفقود ؟

– الحقّ أنّي لا أفهم .

– أضرحة الأولين أيضاً إيماء يا مولاي. قبور السلف أيضاً رسالة. كل شيء في الصحراء هو وصيّة قديمة، ونبأ يستحق منّا أقصى الاهتمام. وكل مافعلته أنّي حاولت أن أقرأ الرسالة، وجاهدت كثيراً كي أفكّ رموز الوصايا، والصرامة التي استفزّت مولاي جزء لا يتجزّأ من ناموس الأوائل .

سكت العرّاف. رسم على التراب رمزاً. نبش الأرض، واستخرج من الجوف حجارة. استمرّ العاشق :

– على مولاي ألا ينسى أننا لا نشيّد البنيان إجلالاً للزعيم وحده، ولكن لأننا قررنا أن نستضيف فيه السماء كلّها. وإذا

شئنا أن تكون استضافتنا لها كاملة، فعلينا أن نقيم لها بيتاً يحاكيها ويتشبّه بها، لأن استدارة البيت مستعارة من استدارة السماء. لقد قلت لك في ذلك اليوم أن كل الأشياء الجليلة مستديرة، لأنّ الخفاء له صورة مستديرة .

– أراك تتحدث عن استدارة الخفاء بيقين العائد من زيارة الخفاء !

– كلّنا، يا مولاي، أبناء الخفاء. كلنا جئنا من مملكة الخفاء، وكلنا سنعود إلى مملكة الخفاء ..

– أرجو ألا تسيء بي الظنّ، ولكن أهل العقل في القبيلة حذّروني فقالوا أن في شغفك بهذه الدوائر شيء معيب ومنفر!

– يحزنني أن أسمع هذا من لسان اعتاد أن يتغسّل بقول النبوءة.

– قلت لك أن هذا ليس لساني، ولكنه لسان العقلاء .

– إذا كان لسان من يدّعي احتكار العقل هو الذي قال هذا فما أبعد هؤلاء عن العقل، وعن امتلاك العقل. لأنّي لا أعرف كيف يدّعي المرء امتلاك العقل ويستنكر استدارة السماء أو الخفاء أو النبوءة. فليحرنا الخفاء من عقل كهذا. توسّل إلى الخفاء أن يقيك من عقل كهذا، أيضاً، يا مولاي !

فرّ. فرّ واقفاً، ودبّ في الظلمات. أطلق العرّاف خلفه النداء :

– مهلاً، مهلاً ..

ولكنه لم يلتفت. ابتلعته الظلمة بعد غمضة .

(٦)

لم يختفِ العاشق، في ذلك المساء، من جوار خباء العرّاف، ولكنه اختفى من النجع، وتبدّد من أرض القبيلة، فلم يره بعد ذلك اليوم أحد، لا في الوديان الشمالية، ولا في منتجعات القبائل المجاورة، ولا في الواحات البعيدة، ولا في رفقة القوافل المهاجرة أبداً. اختفى كأنه فرّ من الصحراء كلّها. اختفى كأنه عاد إلى الوطن، وابتعله الخفاء ..

نشطت الروايات في القبيلة بعد إختفائه، فأطلق أهل الفضول ألسنتهم كما اعتادوا أن يفعلوا في مثل هذه المواسم. قالوا أنهم اكتشفوا سرّ العاشق. قالوا أنهم ظنّوه عاشق الحجارة فحسب عندما سمّوه «عاشقاً» ولكنهم لم يكتشفوا عشقة للعذراء إلاّ بعد فراره. قيل أيضاً أنه قال لأحد أعوانه في تشييد البنيان، إنه وفى بالوعد، وصنع بيديه لمعشوقته قبراً لم يفلح أدهى الأسلاف في صنع مثيل له في كل الصحراء. فماذا يفعل العاشق في أرض دفن فيها معشوقته بيديه ؟

٧

طيْر الخفَاء المزدوج

«الموسيقى تمتاز عن كل الفنون الأخرى لأنها لا تعبّر عن الأفكار، أو درجات تجسّم الإدارة، ولكنّها تعبير عن الإرادة ذاتها».

ارتور شوبنهاور

«العالم كإرادة وكمظهر»

«لم يكن منسياً، لم تكن الحرقة في أغانيه منسيّة أيضاً، لأنه دأب على البحث لإيجاد ما أضاع في الأحزان».

سورن كيركيغور: «الخشية والاضطراب».

(١)

عرفت القبائل طيراً آخر.

عرفت القبائل طيراً آخر، في أزمنة أخرى، فنعتته الأجيال بأشعار مديح ما تزال الألسن تتسلّى بترديدها إلى اليوم. تحدّثت عنه اللحون فقالت أنه يتقن اللحون، و لم يفقد بدنه البديع إلاّ لاستغراقه في الأغاني، وافتتانه بالأنغام. ولكنه لم يغب عن دنيا الخلاء إلى الأبد، لأنّ أخيارٌ كثيرين رأوه، فكانت لهم الرؤية فالاً خيّراً، لأنهم مالبثوا أن فقدوا أجرامهم أيضاً، وتحرّروا من أسْر الخلاء .

قيل في السيَر أن الأجيال جرّبت أن اولئك الذي أصطفاهم الخفاء، فأظهر لهم طائره النبيل، مالبثوا أن شاركوه المصير، ففقدوا أبدانهم الموجعة أيضاً، وفرّوا من الصحراء، ليصير لهم الفراغ وطناً .

(٢)

أقبل، كما يقبل كل مرّة، مع أنفاس الخريف .

طوّق الإصفرار أحزمة الأشجار في وادي الرّتم، وتذبذب الريح، فهبّ من ناحية الشرق، ثم انتقل حالاً، فهبّ من ناحية البحر المحيط، ثم سكن فجأة حتى أيقن أهل النجوع أنه قد هاجر إلى أوطان أبعد، فهبّ من ناحية الشمال، مع حلول المساء، ببسالة

أكبر. يضطرب النَّبْت في كلّ الصحراء، ينوس العشب الهزيل المستجير بالأرض، وتستجيب خصلات الرتم، وعمامات الطلح، برجف حميم، فتغنّي الصحراء ابتهاجاً بتبدّل الفصول .

يقبل الطائر من المجهّول ليغنّي أغنيته أيضاً .

يقبل ليتغنّى بالتحوّل الحزين في سيماء الشجر، ويومىء في لحون الأشجان لذلك الشيء الغامض، النفيس، الذي يختلسه الخريف من صدور أهل الخلاء في كل عام، فيحزنون لفقده كثيراً برغم أنهم لم يدركوا له سرّاً يوماً لأنهم كانوا سيحزنون أكثر، وسيعرفون شقاءً أكبر، لو عرفوا أن الجوهرة المفقودة إسمها: الحياة !

(٣)

اختلف الرواة في شأن حجمه، ولونه، ومسلكه .

قال بعضهم أنه يقلّ حجماً عن «مولا .. مولا» قليلاً، وقال آخرون أنه يقلّ عن «مولا-مولا» كثيرا، وأقسم فريق ثالث أنه في حجم ذكر النّحل .

أختلف أهل الخلاء في شأن اللون أيضاً، فقال البعض أنه أبقع، وأكدّ آخرون أنه فضّي موشّى الجناحين بسيماء خضراء تميل إلى اللون الأصفر مما يجعله أكثر فتنة في الومضات النادرة التي يمرق فيها بين الأحراش فيغمر الضوء جناحيه. وذهب فريق ثالث إلى أبعد فقالوا أنه بلا لون، لأن لا أحد يستطيع أن يخلع

لوناً من الألوان على كائن لم يسبق لأحد أن رآه. وادّعوا أيضاً أن أولئك الذين جادلوا في شأن حجمه أو لونه أو مسلكه ليسوا سوى شعراء اعتادوا أن يروا مالا يراه الناس، ويسمعوا ما لايسمعه الناس، ويقولوا ما لا يقوله الناس .

ولكن الإدّعاد لم يمنع القبائل أن تتجادل في أمر مسلك الطائر أيضاً. قال رواة أنه يعشق الوديان، ويؤثر الاختباء في أحراش الرّتم التي يغزوها شحوب الخريف، يكمن في أصول الشجيرات زمناً قبل أن ينفخ في مزاميره ويبدأ عزفه العجيب. وقال آخرون أنه لا ينزل الوديان السفلى إلاّ أخيراً، لأنه يعتصم في عمامات الطلح في السهول العليا، ويمكث هناك أمدًا قد يطول وقد يقصر، ولا يتسلّل إلى أحاضيض الوديان إلاّ عندما يحين الميعاد، ويأتي أوان الغناء .

ولكن أهل الشكوك جاءوا وطعنوا في هذه الروايات أيضاً. قالوا أن أهل الخلاء مازالوا يعانون من علّة قديمة قدم القِدْمة نفسها اسمها: العماء ! والبرهان أنهم مازالوا يعجزون عن التمييز بين ما هو حقّ وما هو باطل، بين ما هو خير وما هو شرّ، بين ما هو ظاهر أو ما هو خفيّ. ولو لم تكن لهم هذه العلّة لعنة خالدة لاستطاعوا أن يكتشفوا بيسر أن الطائر الذي يصفون ليس نفسه الطائرالذي يفتنهم بالغناء، ذلك أن الطائر الذي ظنّوه دائماً طائراً وحيداً هو، في الحقّ، لا يأتي النجوع إلاّ برفقة طائر آخر

هو له قرين. وكلّ ما تقوله القبائل عن طائر الغناء بشأن الحجم، أو اللون، أو المسلك أمر لا صلة له بطائر الخفاء، ولكنه يعني الطائر القرين الذي اعتادوا أن يروه بعيون العماء !

(٤)

مضى أهل الشكوك في تفسير أمر الطائر فقالوا أن كل جرم ينقسم إلى شطرين: أصل وظلّ. تكلموا طويلاً عن ماظهر في الخلاء وما خفي، وانتهوا إلى أن ظلّ الكائن هو مارأته عين الكائن ببصر العماء، وأصل الكائن هو ما خفي عن عين العماء، ولم يُدرك إلاّ بعين الخفاء. وأهل الصحراء الأشقياء الذين جاءوا إلى الصحراء بعلل لا يُرجى منها شفاء عجزوا عن التمييز بين العينين كما عجزوا عن التمييز قبلها بين كل النقائض الجسيمة .

ويُقال أن هذا الفريق كان أوّل من حذّر القبائل من فتنة طائر الخفاء عندما رأووا فعل أغانيه في النفوس، وسلطان لحونه على عقول أعقل العقلاء. كان الخلق يهبّ كلّه ويهرع إلى الوديان لسماع أناشيد الشحن العجيب. يهرع إلى الوديان الأكابر والأتباع والعبيد والرعيان والنساء والفتيان وحتّى أصغر الشبان. يأخذهم الطائر بالصوت فيمكثون في الأودية أياماً، وكثيراً ما ينسون أنفسهم هناك فيمكثون ما مكث الطائر الخفيّ، لا يأكلون، ولا يشربون، لا يتكلمون و لاينامون، فيصيبهم

الهزال، ويرجفون بحمّى الوجد والمسّ، وتستيقظ في صدورهم قبائل الجنّ التي ظنّوا أنهم قضوا عليها بتمائم الأولين إلى الأبد. تستيقظ القبائل المعادية في الصدور فيجدبون ويزبدون ويتمايلون.

ولكن الخراب الذي يصيب ما ملكت أيديهم في مثل تلك الأثناء يفوق الخراب الذي ينزل بأبدانهم: تختلي الذئاب بالقطعان في المراعي لتفتك بها، وتشرد الإبل إلى أراضٍ أخرى لتقع في أيدي قطاع الطرق ولصوص البعائر، وتهب رياح الخريف فيذهب العجاج الأحبية ويذهب بالمتاع، وعندما يعود القوم إلى أنفسهم في نهاية الأمر، يكتشفون أن الخفاء لم يعدهم إلى الصحراء، ولكنه رمى بهم إلى متاهات الخلاء لأوّل مرّة، وعليهم أن يفتّشوا عن سبيلهم من البدء .

هنا تدخّل الكهنة، ورأوا أن يتولوا الأمر بأنفسهم !

(٥)

طافوا القبائل، ولقنوا النذير بالنداء. قالوا أن طائر الفتنة ليس رسولاً من رسل الخفاء، ولكنه مكيدة جديدة من مكائد العدوّ الخالد ،وانتهيط، فليحترسوا، وليتعلموا إلتزام الحذر. قالوا، على لسان النذير، أن اللئيم القديم اعجزه إن يبيدهم بالمقتنيات، وآلمه أن يأخذهم بسلاح الإغواء، فابتدع حيلة الغناء ليفني

أجرامهم، ويبيد أبدانهم، ويهلك أوطانهم، لأنه اكتشف ضعفهم إزاء اللحون، وأدرك أن لا شيء يستطيع أن يفني أجسام الخلق مثل الغناء. قالوا أيضاً أن الساحر الخالد تخفّى في بدن طائر هذه المرّة، كما تخفّى قبلها في أجرام الحيّات، واستعار صوت الطير، وتسلّل إلى أودية الجوار ليسرقهم من أبدانهم ومن نفوسهم بسلطان الصوت، لأن اللئيم عرف سرّهم، وأدرك ضعفهم الذي ورثوه عن أسلافهم إزاء الصوت ولذّة الصوت، فقرّر أن يأخذهم بسلطان الصوت، فاحترسوا، ابتداءً من هذا اليوم، من كل صوت !

عمّ القبائل بلبال، وارتفع بين أهل العقل جدل، وطعن كثيرون في وصايا الكهنة، وقام فريق فتكلم بلسان الضدّ. قال فريق الشّك أن العرافين لا يريدون أن يكفوا عن الاستهانة بعقول أهل العقل، ولايملّون من ترديد أكذوبة اختلقوها قديماً ليسوقوا بها أمم الصحراء إلى الحياة برغم أن القبائل تعرف إنها ليست سوى إدّعاء مريب. واليوم يأتون أيضاً ليجرّوا القبائل عن الحق بعيداً، وليقولوا، إدّعاء أيضاً، أنهم يفعلون ذلك حرصاً على الملّة من الإنقراض، وهم أوّل من يعلم أنهم يمنعون الملّة من التنعّم بتوقها الأبدي في نيل الخلود، ولأنهم يعلمون أيضاً أن الكائن الذي لا يصير خالداً إلاّ إذا فقد جرمه ، لا يهمه أن يتخلى عن بدن الظلّ إذا كان سينال بالقربان جرم الضوء، جرم الخفاء،

جرم الأصل الذي لا يعرف الأجرام .

مضى أهل الشكوك في معاندة الكهّان إلى أبعد فاتهموا الخصوم بحرمان أبناء القبائل الأشقياء من اللذّة الوحيدة التي منّ بها الخفاء، وقالوا أن العرافين لا يحاكون قساوة ، وانتهيط، بتحريم الاستماع، والتمتّع باللحون، ولكنّهم يستعيرون دوره، ويتكلمون بلسانه، ويحفرون لأهل الخلاء تلك الهاوية القبيحة التي أقسم ،وانتهيط، يوماً أن يقودهم إليها. الكهنة ليسوا كهنة. الكهنة هم ،وانتهيط،.

(٦)

حملت رياح الشمال إلى الصحراء بالغيم كثيراً، فسالت الوديان بمياه سخيّة، وارتفع في قيعان الأحبية الصراخ الموجع لمواليد أفزعهم هول الميلاد، وأباد تلاحق الأيام أبداناً كثيرة، فهجعت في سفوح الجبال تحت أكوام الحجارة الرمادية، ولكن طائر الخفاء لم يكف عن الغناء .

لم يكف الطائر عن الغناء، و لم يكف العشاق عن نزول الوادي، ليخرجوا بالغناء من الوادي، ومن كل الأودية، ومن الصحراء كلّها، فيرون مالا يستطيعون أن يروه إلاّ بالغناء، ويسمعون مالا يستطيعون سماعه إلا بالغناء، ويحيون حياة أخرى لا يستطيعون أن يحيوها إلاّ بالغناء .